
المكتبة القبطية على الانترنت
http://copticlibrary.110mb.com

الكلية الإكليريكية اللاهوتية للأقباط الأرثوذكس

مذكرات في الرهبنة المسيحية

الأنبا يوأنس

الرهبنة المسيحية كما ظهرت فى بادىء أمرها تجسيد لنظرية نسكية وفكرة فلسفيـــــة قوامها التبتل والتعبد فى البرارى والجبال بعيدا عن العالم فى حياة زهد وفقر اختيارى • واستخدمت كلمة رهبنة فى بادىء الأمر للتعبير عن حياة العزلة الكاملـــــــــــــــــــة Eremiticalmode of life ، ولكنها استخدمت فيما بعد للتعبير عن حيـــــــــاة الكنوبيون (الشركة الرهبانية، ... Cenobitic life) • وعلى ذلك فقد استخـــدم اللفظ (الرهبنة) فى معناه الواسع للتعبير عن الحياة التى عاشها النساك بعيدا عن العالم سواء فى عزلة كاملة او فى حياة شركة •

والمشكلة التى تقابل الدارس للرهبنة المسيحية فى طورها المبكر هى دوافع وأسبـــاب قيامها فى النصف الثانى من القرن الثالث المسيحى فى صورة العزلة ، والذى سرعـــــان ماتطوّر الى حياة الشركة •

المراجع الأساسية للرهبنة المسيحية :

(١) حياة القديس انطونيوس بقلم اثناسيوس الرسولى بابا الاسكندرية العشريـــــــــن (٣٢٨ ــ ٣٧٣) ويعتبر اثناسيوس أول من كتب سيرة عن أحد آباء الرهبنة • تتلمـــذ اثناسيوس بعض الوقت على يدى الانبا انطونيوس • ويقال انه كتب هذه السيرة فى منفاه فى مدينة تريف Tréve الواقعة على الحدود بين فرنسا وبلجيكا فى الفترة بيـــن سنة ٣٣٦ وسنة ٣٣٨م • وكان تأثير هذه السيرة قويا حتى أن المؤرخين الأوربيــين يقرّون أنها ألهبت الشعور بالرغبة النسكية فى كل غربى أوربا آنذاك • ومن أمثلة مـــن تأثروا بها وحملتهم على التوبة وتغيير حياتهم القديس اغسطينوس •

(٢) كتاب بستان الرهبان The Paradise of the Holy Fathers ويعـــــرف بأسم Lausiac History كتبه بلاديوس Palladius ....

اسقف هلينوبوليس Helenopolis في مقاطعة بيثينية بآسيا الصغرى حوالى سنة ٤٢٠م ، بناء على طلب شخص يدعى لاوسوس Lausus الذى كان يشغل منصبا كبيرا فى بلاط الملك ثيئودوسيوس الثانى (الصغير) فى القسطنطينية وبلاديوس أصلا من غلاطية بآسيا الصغرى ، ولد حوالى سنة ٣٦٤م . وترهب فى جبل الزيتون . زار مصر مرتين : الأولى سنة ٣٨٨م وبقى بها حتى سنة ٣٩٩ ، أمضى منها نحو تسع سنوات مع النساك المصريين بالأديرة القريبة من الاسكندرية وفى نتريا ووادى النطرون ، واتجه جنوبا الى الصعيد حيث زار تجمعات النساك والراهبات ووصل الى منطقة أديرة باخوميوس . ثم رسم أسقفا حوالى سنة ٤٠٠ . أما المرة الثانية التى وفد فيها الى مصر فكانت سنة ٤٠٦م حيث أتى الى مصر منفيا الى أسوان بسبب مناصرته ليوحنا ذهبى الفم الذى نفى هو الآخر . وفى خلال هذه الزيارة الثانية تردد على منطقة انطنوى (ملوى) حيث أمضى بها أربع سنوات ، وزار ديرا فى أخميم وفى سنة ٤١٢م عاد الى غلاطية .

(٣) مؤلفات يوحنا كسيان .. John Cassian الذى توفى سنة ٤٣٥م . يعتبر كسيان فى مقدمة من كتبوا عن الرهبنة المسيحية وأدبياتها وأبطالها . لم يُتفق على موطنه الاصلى ، فمن قائل أنه من شرقى أوربا ، ومن قائل أنه من فلسطين أو من أواسط فرنسا . عاش ناسكا فى بيت لحم مع صديق له يدعى جرمانس ، اللذين تركا فلسطين ووفدا الى مصر بعد أن سمعا بسيرة النساك المصريين الذى ذاع وتتذاك . زارا الوجه البحرى وعاشا على الأخص فى برية شيهيت ، ثم قفلا راجعين الى بيت لحم حيث سكنا مدة قصيرة ، عادا بعدها الى برية شيهيت التى استهوتهما لدرجة كبيرة ثم ذهبا بعد ذلك الى القسطنطينية ، وكانا ضمن المدافعين عن يوحنا ذهبى الفم الذى رسم كاسيان كاهنا . ثم انتقل كاسيان بعد ذلك الى مرسيليا بجنوبى فرنسا حيث أسس ديرا للرجال بأسم القديس فيكتور (بقطر) وديرا آخر للعذارى .

(٤) تاريخ المتوحدين فى مصر .... Historia Monachorum in Aegypto
وقد أثبت بعض مشاهير النقاد صحة نسبة هذا الكتاب الى روفينوس الاكويلى ، الذى زار مصر نحو سنة ٣٧٢م وأمضى بها نحو ثلاثة عشر عاما .

(٥) التاريخ الكنسى لسوزومين Sozomen ، وقد وضعه المؤلف بين سنتى ٤٣٩ ، ٤٥٠م وهو ذو قيمة كبيرة بالنسبة للرهبنة فى بلاد الشام وآسيا الصغرى فى الفترة المبكرة من ظهورها .

(٦) كتاب "حياة باخوميوس" وقد كان أقل انتشارا من سيرة انطونيوس التى كتبها اثناسيوس ويمتاز بكشفه للروح العظيمة التى كانت تغذى هؤلاء النساك . ولدينا عدة ترجمات لهذه السيرة باللاتينية واليونانية والسريانية والقبطية الصعيدية والقبطية البحيرية ولدينا ترجمة نشرها القس عبد المسيح المسعودى وطبعت بالقاهرة سنة ١٨٩١م وهى عبارة عن نسخة خطية فى المكتبة البطريركية ، مأخوذة عن مخطوطة بدير أبى مقار يرجع تاريخها الى سنة ١٢٥١م ، وهذه مترجمة عن نسخة يونانية أقدم منها .

(٧) الكتابات النسكية للقديسين باسيليوس الكبير وغريغوريوس الثيولوغوس ويوحنا ذهبى الفم ونيلوس السينائى وايسيذوروس الفرمى وابروسيوس واغسطينوس وجيروم فى بعض رسائله وكتابه عن حياة النساك .. Lives of Anchorites .

اعتراضات ضد الرهبنة المسيحية :

ثمة اعتراضات ضد الرهبنة المسيحية يحاول أن يثيرها فريق من معارضيها . وتتلخص هذه الاعتراضات أساسا فى الاتى :

(١) أنه ليس لها سند من الكتاب المقدس . وأنها استمدت نظامها النسكى مما سبقها من أنظمة النساك الوثنية أو اليهودية .

(٢) أن مبادئها وممارستها تضاد مفاهيم الايمان المسيحى ، لأنها تعتمد فى نظامها الروحى على اماتة الجسد عن طريق ممارسات جسدية خارجية كالصوم والمطانيات والعمل اليدوى وتهمل عمل النعمة والايمان والتجديد الداخلى ٠

(٣) أن الرهبنة هروب من العالم وما فيه من شر ، ومفروض أن الانسان يجاهد حيث هو كما أنه لافائدة عملية تعود على الكنيسة والمجتمع من وراء الرهبنة ٠

وسوف لانجيب على هذه الاعتراضات ونفنّدها واحدة فواحدة ٠ لكننا قمنا بذلك خلال العرض الذى نقدمه فى الصفحات التالية ٠

الرهبنة المسيحية وأنظمة النسك غير المسيحية

الرهبنة بمعنى الحياة النسكية الانعزالية لم تكن قاصرة على المسيحية ، ولم تكن المسيحية هى البادئة بها بل وجدت بهذا المفهوم قبل العصر المسيحى بقرون عديدة عند الهنود والمصريين القدماء والاغريق واليهود ٠ كثيرون — لاسباب مختلفة وفى عصور متباينة .زهدوا العالم ومباهجه عاكفين على الصوم والتأمل مكرسين ذواتهم لحياة أسمى ٠

والسؤال الآن : هل الرهبنة المسيحية استمدت أصولها من الأنظمة النسكية التى عرفت عند هذه الشعوب ؟ وللاجابة على هذا السؤال لابد لنا أن نستعرض بعض المفاهيم والطقوس النسكية عند هذه الشعوب ، ونقارن بينها وبين النسك ومفهومه فى الرهبنة المسيحية ٠

أولا : عند الهنود :

يرجع العالم الالمانى هلجنفلد A.Hilgenfeld بأصل الرهبنة المسيحية الى البوذية وشجعه على ذلك ما أكتشف أخيرا من آثار الفكر فى الادب المسيحى المبكر ، كما أكد ذلك العالم الأثرى بترى .. Petrie فى كتابه Personal Religion in Egypt

تأثر الحياة النسكية المصرية بالهندية . لكننا لانستطيع أن نسلم بهذا الرأى لان هـــذا التأثر المذكور غير واضح ، فضلا عن وجود أسباب رئيسية تدعونا لرفض هذه النظرية وذلـــك بالنظر الى النقاط الاتية :

(١) مبادىء النسك البوذى :

على الرغم من وجود نوع من التشابه الظاهرى بين النسك البوذى والرهبنة المسيحية كما يحدث عادة بين الانظمة النسكية بصفة عامة ، لكن أوجه التعارض بينهما كبيرة . فبموجب التعاليم البوذية نلاحظ الاتى :

أ — تعلم البوذية أن الخلاص قاصر على التنسك بحسب مفهومها .

ب — ترذل البوذية فى نظامها النسكى العمل اليدوى وتتركه للمستجدين بينما الرهبنـــة المسيحية لا تعلم بأن الخلاص قاصر على اتباعها كما أنها تقدس العمل اليدوى وتـــرى أنه لازم . وحياة الشركة الرهبانية التى بدأها باخوميوس كان العمل اليدوى الصناعى يمثل فيها عنصرا بارزا . يضاف الى ذلك أن الرهبان المسيحيين عاشوا عن طريـــق العمل اليدوى ، بينما اعتمد رهبان البوذية على التسول . وليس أدل على ذلـــك من القصة الآتية التى أوردها كتاب بستان الرهبان .

" زار احد الاخوة الاب سلوانس فى جبل سينا ، فلما رأى الاخوة منكبين على العمـــل قال للشيخ لاتعملوا للطعام البائد أيها الاب ، لان مريم اختارت النصيب الصالح . فقـــال الشيخ لتلميذه — أعط الاخ مصحفا " انجيلا " وأدخله الى قلاية خالية ، ففعل . ولمـــا حانت ساعة الاكل بقى الاخ منتظرا على الباب مترقبا وصول من يسأله الحضور الى المائـــدة فلما لم يدعه أحد نهض وجاء الى الشيخ وقال له — هل أكل الاخوة اليوم يا أبانا ؟ فقال لـه نعم . فقال له ولماذا لم تدعنى للاكل معهم فأجابه الشيخ ذلك لانك رجل روحانى ولســـت محتاجا الى الطعام ، وأما نحن فجسديون نحتاج الى طعام ولذلك نعمل العمـــل وأما أنت فقد اخترت النصيب الصالح تقرأ النهار كله ولاتحتاج الى طعام . فلما سمع الاخ هذا الكلام خر ساجدا وقال " اغفر لى يا أبانا " فقال له الشيخ " أعلم اذن أنه لاشـــك فى أن مريم تحتاج الى مرثا لان مريم مدحت بمرثا " .

جـ ـ يضاف الى ذلك أيضا ان البوذية لم تحرم بأكل اللحم باعتباره من الممنوعات ، بينما الرهبنة المسيحية لم تعلم بذلك ولا تمنع أكل اللحم الا لمن يريد أن يحيا حياة اكثر تقشفا •

د ـ والبوذية ليس فيها أي أقامة للعبادة الجماعية على عكس ما نراه في الرهبنة المسيحية •

هـ ـ أخيرا فاننا نرى أن الجماعات النسكية الهندية (Indian Orders) لم يكن لهما نظام يحكم نساكها (رهبانها) بل أظهر هؤلاء استقلالا متميزا في التجوّل حيث شاءوا •

(٢) في الهند تطورت حياة التوحد الى حياة الجماعة كما هو الحال في الرهبنة المسيحية في مصر • فلو كانت الرهبنة المسيحية مجرد تقليد لنظام النسك الهندي لكان من المتوقع انها تبدأ بحياة الشركة • لكن التاريخ يثبت عكس ذلك • فقد اظهر كلاهما تطورا مشابها من التوحدّ الى حياة الشركة •

(٣) لا يمكن تقصى آثار ارتباط مشترك بينهما • فعمليات الحفر كشفت عن احتمالات تأثيرات هندية ترجع غالبا الى القرن الخامس قبل الميلاد في فترة الاحتلال الفارسى لكل من مصر والهند • ففي مدينة ممفيس اكتشفت رؤوس صغيرة من الفخار للأجناس المختلفة التي تجمعت هناك • كما وجدت مناظر مصورة لرجل منغولى من التبت وأمرأة آرية من البُنجاب وشخص جالس بطريقة هندية • والعالِمة الاثرى بترى Petrie يرجع المرأة الهندية الى سنة ٢٠٠ ق•م• أما تفسير هذا الامر فيرجع الى امبراطور الهند أسوكا (.. Asoka) الذي عزم حوالي منتصف القرن الثالث ق•م على نشر تعاليم البوذية في البلاد النائية وكانت مصر من بين أقاليم البحر المتوسط التي ارسل اليها الارساليات البوذية وذلك في حكم بطليموس فيلادلفس• لكنهم لم ينجحوا في اقامة أية منظمة بوذية •

كانت مصر ترتبط بالهند بروابط تجارية وكانت التجارة بين الاسكندرية والهند ـ وهى التي حملت الكتّاب الى مزيد من الاهتمام بتلك البلاد النائية ـ قد بلغت أقصى درجة من الازدهار في اواخر القرن الثانى واوائل الثالث الميلاديين • لكن هذه التجارة

اخذت فى الاضمحلال بعد ذلك • ويمكن القول انها توقفت كلية حوالى سنة ٥٠٧ م وكنتيجة لذلك فان اهتمام الاسكندرية بالهند لم يعد له وجود قبل ظهور الرهبنة المسيحية بسنين طويلة • وأن كان من المحتمل ان عددا قليلا من الهنود قد بقى بالاسكندرية التى كانت كمدينة دولية آنذاك • لكن الحاجز الجنسى واللغوى منع قيام صلة وثيقة بالسكان الاصليين وعلى ذلك — وكما يقول المؤرخ ماكين .. Mackean لايمكننا ان نسلم بأن الاقباط تأثروا بالافكار والممارسات الدينية الهندية •

ثانيا : عند الاغريق :

كان التنسك ظاهرة مميزة فى الانظمة الاورفية (Orphic) والفيثاغوريه Phythagorean ولكن ليس ثمة علاقة بينها وبين الرهبنة القبطية •

كانت الافلاطونية المحدثة (الجديدة) Neo-Platonism تمثل تطورا هاما فى التنسك اليونانى فى الاسكندرية فى القرنين الثالث والرابع الميلاديين • لقد اختلفت عن أوضاع الفلسفة المبكرة بتأكيد جانب الحياة التأملى بدلا من جانبها العملى وتمسك اتباعها بأن النفس اذا تطهرت من الافكار الدنيوية تستطيع الوصول الى التأمل فى الله وقالوا ان التحرر من الاهتمامات المادية يمكن تحقيقه بالعزلة والنسك • وهكذا نرى فى الافلاطونية الجديدة الميل الى الاعتزال عن العالم حاويا معه الحياة النسكية والتأملية التى هى من مميزات الرهبنة المسيحية • ومع ذلك فلا يمكن أن نسلم بأن الرهبنة المسيحية استمدت أصولها من أنظمة النسك الاغريقى للأسباب الآتية :

أ) كانت هذه الفلسفة يتبعها بحماس كثير من المفكرين فى القرنين الثالث والرابع الميلاديين وأثرت بعمق فى الفكر المسيحى • لكنها على الرغم من ذلك قد كانت معروفة لقلة من الناس وعلى وجه الخصوص للمثقفين ثقافة هيلينيه (يونانية) يقابل ذلك من الناحية الأخرى أن الرهبنة القبطية كانت حركة قبطية خالصة قام بها وتبعها رجال كانوا يجهلون

اليونانية غالبا • ومن المستحيل أن نفترض ان سكان الريف فى صعيد مصر مثلا كانوا متأثرين بالافلاطونية الجديدة بدرجة ينتقلون معها الى الحركة الرهبانية •

ب) ويبدو ان الافلاطونية المحدثة ظلت موضوعا شخصيا بحتا ، ولم يكن من آثارهـــا اتباع حياة توحدية او تشكيل مجتمعات دينية •

ثالثا : عند المصريـــين

كانت هناك نظرية تنادى بأن أصل الرهبنة المسيحية فى الوثنية المصرية القديمـة خصوصا وأن منشأ الرهبنة كان فى مصر • ولعل ذلك يرجع الى ماذكرته بعض البقايا البردية عن بعض الحبساء المكرسين لعبادة سيرابيس ، وكان رئيسهم مقدونى الأصل يدعى بطليموس ابن جلوسياس (Ptolemy son of Glausias) مقدونى الأصـــل فـى ممفيس سنة ١٦٥ ق•م) وهناك أيضا فى البرديات ذكر لأبوللونيوس شقيق بطليموس واثنتـان تدعيان Thaues & Taous والاثنتان الاخيرتان كانتا كاهنتين عرفتا باسم التوأمتيـن ربما لأن الأخوات التوائم كن يختترن لهذا الغرض •

كان بطليموس صديقا لوالدهن المتوفى وحصل لهن على هذه الوظيفة وكان حاميـا لهما • ويبدو أنهما لم تكونا متعلمتين عاشتا فى الهيكل يقدمن لسرابيس التقدمات التى كانت تصل من أجل رفاهية الأسرة المالكة وكانتا تشتركان فى الاحتفالات الجنائزية لأبيس • وبهذه الطريقة حصلتا على مسكن ودخل وأشياء عينية من الخبز والزيت والكتان • هاتان الحبيستـان كانتا من اصل أجنبى (عرفتا باسم .. Katokoi) ومعناها المملوكتان لسيرابيس •

ويبدو أن هؤلاء الحبساء كانوا قليلين فى العدد ، وكانوا يعيشون فى الهيكل او فـى ملحق به لفترات مختلفة يمكنهم ان ينهونها متى أرادوا • وكان مسموحا لهم بالاختلاط بالعالم الخارجى لكن لم يكن مسموحا لهم أن يتركوا حدود الهيكل • ويبدو أنهم كانوا يأتون لأسباب

متنوعة على العلاج او طلب المشورة من الاله سيرابيس الذى كان هو اله الشفاء . والبعض كانوا يمارسون وظائف كهنوتية ، ويبدو انهم كانوا وسطاء لطالبى معرفة المستقبل ولذلك كانوا يوجدون بالمعابد كثيرة الزوار . كانوا فقراء جدا وكانوا يسمون انفسهم شحاذين ولكن هدفهم وطريقة حياتهم كانت مختلفة كل الاختلاف عن تلك التى للراهب المسيحى . لم يكونوا متبتلين (غير متزوجين) ولا متميزين بالغيرة الدينية لم يمارسوا الحبس الشديد من أجل التوبة ، ولم يكن فقرهم الذى يشكون منه يشبه بأى حال نسك الرهبان المسيحيين .

أضف الى ذلك انه ليس هناك أى تأييد فى وثائق الرهبنة لمثل هذه النظرية . لقد كان الاتجاه العام للرهبان المسيحيين مضادا من كل وجه للوثنية .

هناك نقطة واحدة نحتاج الى فهمها . لقد حاول البعض تأييد الرأى القائل أن باخوميوس أب الشركة كان راهبا لاله سيرابيس والمشكلة تدور حول الوقت الذى امضاه باخوميوس فى مكان يدعى شنوبسكيون (Chenoboskion) (موقعها الحالى قصر الصياد مركز دشنا محافظة قنا) أو شنيسيت (.. Schenesit) فى الصعيد الأعلى بعد أن ترك الجيش .

ووفقا للرواية التى وصلتنا باليونانية ، فانه بعد أن آمن بالمسيح نال المعمودية ورأى رؤية تختص برسالته فى المستقبل وبعد ذلك اذ أرشده روح الله رغب فى أن يصير راهبا وبحث عن المتوحد الأنبا بالمون الذى كان قد سمع عنه . أما الروايات التى وصلت الينا بالقبطى البحيرى وبالعربية تضيف الى ذلك أن باخوميوس حين اختار شينسيت اختارها لأن عددا قليلا من الناس كانوا يسكنونها ، ثم ذهب الى شاطىء النهر حيث وجد معبدا صغيرا لاله سيرابيس . هناك صلى وارشده روح الله ان يبقى به ، وكان يزرع بعض الخضروات وأشجار النخيل لحاجاته الخاصة ولفقراء القرية والغرباء . ولم يلبث أن اعتمد فى كنيسة مجاورة . وفى نفس الليلة رأى رؤيا عن مستقبله . ثم حدث وباء فى تلك الجهات فكرس نفسه للعناية بالمرضى

مدة ذلك الوباء . ولما وجد أنه من المستحيل أن يحيا فى وحدة بسبب الجموع التى تحيط به صمم على أن يحيا حياة التوحد فترك مسكنه والخضروات واشجار النخيل ليمتنى بها راهب مسن ثم ذهب ليبحث عن الأنبا بالامون الذى سمع عنه .

ونحن نلاحظ أن الرواية اليونانية لاتذكر شيئا عن المعبد الذى فى شنوسكيون . وعلى الرغم من أن الروايتين القبطية والعربية تشيران الى هذا الأمر لكن كل ذلك لا ينهض دليلا على ان باخوميوس كان حبيسا من حبساء الاله سيرابيس ، لان الذى حركه كان روح الله. لقد أعطى ذاته للمسيح يسوع ، ومن ثم كان رجوعه الى المعبد بعد المعمودية يعد أمرا مستحيلا حتى لوكان مخلصا لسيرابيس . أضف الى ذلك أن خدمته للمرضى فى بيوتهم زمن الوباء ـ حسبما تذكر الروايتان ـ كان مضادا كلية لعادات أولئك الحبساء .

وبعد ، فمن الواضح أن معبد سيرابيس فى شنوسكيون كان قد هجر منذ زمن طويل ولم يكن هناك أى حبساء لسيرابيس ، اذ أن هولاء الحبساء كانوا يوجدون فى أماكن مزدحمة آهلة ، بينما ذهب باخوميوس الى شينسيت لقلة الناس وهناك عاش بمفرده فى أغلب الظن والدليل على ذلك أنه لما ترك هذا المكان وجد أنه من الضرورى أن يبحث عن راهب مسن ليعتنى بسكنه ومزروعاته .

وتضيف الرواية القبطية عن الهيكل عبارة " كان يسمى بواسطة القدماء " وهكذا يؤكد أنه كان معروفا فقط عن طريق الشهرة كهيكل لسيرابيس .

رابعا : عند اليهـــود :

سمى جيروم (Jerome) أبناء الأنبياء الوارد ذكرهم فى العهد القديم " رهبان العهد القديم " لكن لايبدو أنهم كانوا نساكا بحال من الأحوال . علاوة على ذلك فقد كان عددهم متقدما جدا عن وقت ظهور الرهبنة المسيحية . لقد برزت شهرتهم فى زمن صموئيل النبى . وهناك اشارات كثيرة عنهم فيما ذكر عن ايليا واليشع النبيين (٢ مل ٢ : ٣ ، ٥)

كما تكلم عنهم عاموس النبى (٢:٤:٢) • ولكنهم اختفوا قبل العصر المسيحى بزمان طويــــل ولايمكن أيضا ان يكون هناك صلة بين الناصريين أو الرنابيين وبين الرهبان المسيحيين • لكــن هناك طائفتين نسكيتين يهوديتين تستحقان الدراسة هما طائفة الاسينيين .. Essenes وطائفة الثرابوت Therapeutae أى طائفة الشفاء ، اذ ان العلامة بترى Petrie يرى أصل الرهبنة المسيحية فى البوذية عن طريق هاتين الجماعتين •

+ ألـ الأسينيون جماعة يهودية ظهرت قبل ظهور السيد المسيح بالجسد ، وكانت مزدهرة فــى القرن السابق للميلاد ، واستمرت حتى خراب أورشليم سنة ٧٠م •• وأن كان المؤرخـــــون القدامى قد ذكروهم باقتضاب كبير ، لكن ــ بفضل ماعثر عليه فى مغارات قمران .. Qumran عند الشاطىء الغربى للبحر الميت جنوبى مدينة أريحا ابتداء من سنة ١٩٤٧ ومابعد هـــــا أصبح لدينا وفرة من المعلومات عنهم •

لقد أطلق الكتّاب القدامى على هذه الجماعة اسم " الاسينيين " وهى تسمية تعنى على الأرجح " الأتقياء " أما هم فدعوا أنفسهم ــ حسبما ورد فى مخطوطاتهم المكتشفة ــ " الجماعة " أو " جماعة الله " أو " جماعة العهد الدائم " •

أما عن عقائدهم وطقوسهم وأسلوب معيشتهم ، فهى عقائد يهودية خالصة ، لكن علـــى غير ما أوله الفريسيون والصدوقيون • وكانوا ثائرين على الشكليات فى الدين ، وكانوا يعتبرون أنفسهم " اسرائيل الجديدة " التى يجب أن تحل محل أسرائيل القديمة الخاطئة ، الآخذة بالأمور الدنيوية • وكانوا يرون ملكوت الله ملكوتا روحيا ، ويعتقدون أنهم شعب العهد الجديد، وأن أعظم الوصايا هى محبة الله ومحبة القريب • كانوا يقيمون عشاء مقدّسا يردّدون فيـــــه الصلوات والترانيم • وكانت لهم معمودية ــ وهى نوع من الوضوء أو الاغتسال ــ يمارسونهـــــا مرتين كل يوم • وكانوا يؤمنون بأن تلك الأيام التى يعيشون فيها هى الأيام الاخيرة ، ولذا ينبغى الاسراع بالتوبة لأنه قد اقترب ملكوت السموات ••• أما وسيلتهم الى ذلك فكانــــت اماتة شهوات الجسد ، والجهاد الروحى فى عزلة عن صخب الحياة • والى جانب ذلـــــك

مارسوا وسائل الزهد • وامتنع بعضهم عن الزواج • وان كان البعض الآخر قد نظر الى الزواج على أنه ضروري لحفظ الجنس • وكان بعضهم متزوجا بالفعل لكنهم بصفة عامة كانوا يقللون من شأن المرأة • .

كانت جماعة الأسينيين تمثل طائفة سرية مغلقة • تميل الى الاشتراكية ولم تكن لأي من أعضاء الجماعة ملك خاص • وكانت الأعمال توزع عليهم توزيعا عادلا • كانوا ينقسمون الى اربع طبقات • وكان التمييز كبيرا جدا بينها • لدرجة أن الذين كانوا في الدرجة العليا يحسّون أنهم قد تدنسوا اذا اتصلوا بمن هم في الطبقات الأدنى منهم • • كانوا يستعملون السحر • ويعبدون الشمس بالاضافة الى تقديرهم الى ناموس موسى • وينكرون قيامة الأجساد

ان الباحثين يشكون في ممارسات الأسينيين النسكية — هل كانت جميعها نسكية أم أنها كانت استمرار لعادات بدائية ؟ ان نظرتهم للزواج على أنه ضروري لحفظ الجنس وتمسكهم بالطهارة الشكلية الخارجية • والوضع الطبقي بينهم واستخدامهم للسحر وانكارهم قيامة الاجساد • • • كل ذلك يوضح الهوة الهائلة التي تفصل بين معتقداتهم ومعتقدات الرهبان المسيحيين •

ان الكتابات المسيحية في القرنين الاول والثاني لاتشير مجرد الاشارة الى اسم الاسينيين اذا أضفنا الى ذلك أن هذه الجماعة تلاشت عقب خراب أورشليم سنة ٧٠م • كل ذلك يجعل من المستحيل وجود أي اتصال بين هذه الجماعة الناشئة في القرن الأول وحياة الحركة الرهبانية في القرن الرابع الميلادي •

أما جماعة الثرابوت Therapeutae طائفة الشفاء • فهي جماعة يهودية متنسكة ظهرت في مصر في زمن فيلو .. Philo الفيلسوف اليهودي • وكانوا يعيشون عند شواطئ بحيرة مريوط بالقرب من الاسكندرية • ويجب عدم الخلط بينهم وبين الأسينيين لوجود نقاط خلاف كبيرة بينهم • فعلى عكس الأسينيين فقد كان الثرابوت مهتمين بالفلسفة

اليونانية وغير منشغلين بالعمل اليدوي بل ان العمل اليدوي كان محظورا عليهم . كانـوا يعيشون منفردين بعيدا عن بعضهم طوال الأسبوع ، وكانوا أكثر نسكا ويتألفون من رجال ونساء . وكانوا يجتمعون رجالا ونساءا كل يوم سبت في مكان واحد يفصلهم عن بعضهم حاجز بسيط . مثل هذا الاجتماع الذي يضم الرجال والنساء ، لم يعرفه نظام الرهبنة المسيحية .

وأخيرا فلم يكن هؤلاء المتأملين النساك من اليهود الهيلينيين المتحررين منفصلين تماما عن الرهبان المسيحيين من جهة الزمان بأكثر من قرنين ، لكن كانت ملامحهم اليهودية المميزة جدا وعدم انعزالهم عن النساء وشغفهم بالفلسفة ، وعدم شغلهم اليدوي يظهر الفرق الشاسع في قانونهم وسلوكهم بالقياس الى الرهبان المسيحيين وطريقة حياتهم وعبادتهم في القرن الرابع المسيحي .

أسس الرهبنـــة المسيحيـــة

أثبتنا قبلا أن الرهبنة المسيحية لم تستمد أصولها من أنظمة النساك غير المسيحية التي سبقتها ولم تنحدر عنها أو تتطور منها . وقلنا انها قامت على أسس انجيلية مسيحية وروحانية نسكية تختلف عما سواها .

أخذت الرهبنة المسيحية مبادئها من حياة السيد المسيح نفسه ومن بعض شخصيات الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد وتدعمت تلك المبادئ بما ورد في الكتاب المقدس من آيـــــات .

ونود قبل الخوض في البحث أن نشير الى أمرين جوهريين :

+ أولهما : أن الزواج أمر الهي تُجلّه الكنيسة وتقدّسه وتدعو الناس الى اكرامه . وحتى بقم القديس بولس الرسول — أكبر وأشهر المتحمسين للبتولية — تعتبره سرا الهيا مقدسا (أفسس ٥ : ٣٢) وتشجب المانعين عنه باعتباره نجاسة وتعتبرهم من الهراطقة (اتي ٤ : ١ — ٥)

+ وثانيهما : أن التبتل والرهبنة كليهما أمر اختيارى • ففيما يختص بالتبتل فالأمر واضح جدا الوضوح من كلمات بولس الرسول الواردة فى (١ كو ٧ : ٦ ، ٧) " اقول هذا على سبيل الاذن لا على سبيل الأمر لأنى أريد أن يكون جميع الناس كما أنا • لكن كل واحد له موهبته الخاصة من الله • الواحد هكذا والآخر هكذا ، من زوج فحسن يفعل ومن لايزوج يفعل أحسن " • وفيما يختص بالرهبنة التى تعرف بطريق الكاملين ، وأنها أمر اختيارى ، فالأمر واضح أيضا أن هناك طريقين احدهما اجبارى والآخر اختيارى فلما سأل ذلك الشاب الرب يسوع " أى صلاح أعمل لتكون لى الحياة الأبدية " كان جوابه عليه " احفظ الوصايا " • ولما عاد الشاب وقال " هذه كلها حفظتها منذ حداثتى فماذا يعوزنى بعد " • كان جواب الرب عليه " ان أردت ان تكون كاملا فاذهب وبع •• الخ فى الأول يقول له " احفظ الوصايا " أى أن حفظ الوصايا بذاته كافيا لأن يورثنا الحياة الأبدية • هذا هو الطريق العام الذى جميع المؤمنون مطالبون به وهو اجبارى وبلفظة الأمر (احفظ) • أما فى الثانى فيقول له " ان اردت أن تكون كاملا " وواضح أنه طريق اختيارى •

وتقوم الرهبنة المسيحية على أربعة أسس :

١ — البتولية   ٢ — الوحدة •   ٣ — التجرد •   ٤ — الطاعة •

والآن نعرض لهذه الأسس :

أولا : البتولية .. Virginity

لم تكن فكرة البتولية حدثا جديدا استحدثته المسيحية وانفردت به لكنها عرفت منذ القديم فى بعض النظم الدينية الوثنية لدى شعوب الحضارات القديمة كالمصريين والهنود والصينيين • كما عرفت أيضا بين شعب الله فى العهد القديم • ومن أمثلتها ايليا واليشع النبيان اللذان آثرا سكنى الجبال وحياة الوحدة • ويوحنا المعمدان أعظم مواليد

النساء الذي ذكر عنه الانجيل أنه " كان في البراري الى يوم ظهوره لاسرائيل " ولقد ذكرنا سابقا أنه كانت هناك بعض الجماعات اليهودية المتنسكة التي تبتلت وشجعت حياة العزوبة كالأسينيين والثيرابوت . وتكلم السيد الرب بلسان أشعياء مادحا المتبتلين بقوله " لايقل الخصي ها أنا شجرة يابسة لأنه هكذا قال الرب للخصيان انى أعطيهم في بيتي وفي أسواري نصيبا واسما أفضل من البنين والبنات وأعطيهم اسما أبديا لاينقطع " (أشعياء ٥٦ : ٣ - ٦ وأنظر متى ١٩ : ١٢) .

لاشك أن مثلنا الأعلى هو السيد المسيح الذي عاش بتولا وولد من بتول احتفظت ببتوليتها الى نياحتها . وفي ذلك يقول القديس ايرونيموس (جيروم Jerome) تعليقا على أن يوحنا التلميذ البتول هو الوحيد بين التلاميذ الذي ميز المسيح بعد قيامته حينما أظهر ذاته لهم على بحر طبرية ولم يعرفه أحد منهم الا يوحنا " لأن البتول وحده عرف البتول ابن البتول " .

وقد تكلم السيد المسيح كلاما صريحة على البتولية مظهرا عظم سموها وقدسيتها . فبعد حديثه الى الفريسيين عن قدسية الزواج وعدم جواز الطلاق قال له تلاميذه " ان كان هكذا أمر الرجل مع المرأة فلا يوافق أن يتزوج . فقال لهم ليس الجميع يقبلون هذا الكلام بل الذين أعطى لهم . لأنه يوجد خصيان ولدوا هكذا من بطون أمهاتهم ويوجد خصيان خصاهم الناس ويوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات . من استطاع أن يقبل فليقبل " (مت ١٩ : ١٠ - ١٢) . والمقصود بالخصيان الذين خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات جماعة المتبتلين الذين رفضوا الزواج اراديا من أجل الرب . أضف الى هذا ان الأمر يصل في سموه الى أن يكون عطية الهية " بل الذين أعطى لهم " وفي رده على الصدوقيين الذين طرحوا عليه سؤال المرأة التي تزوجت من سبعة اخوة قال " لأنهم في القيامة لايزوجون ولا يتزوجون بل يكونون كملائكة الله في السماء " (مت ٢٢ : ٣٠ - لوقا ٢٠ : ٣٥) أي أن عدم الزواج هو تشبه بحياة الملائكة . ولذلك قال القديس

كبريانوس الشهيد مخاطبا بعض العذارى مثبتا هذا المعنى " لقد ابتدأتن والآن وأنتن في هذه الحياة أن تتمتعن بما سيكون لكن في السماء بعد القيامة لأنكن بحفظكن بكارتكن قد تشبهتن بالملائكة •

أما معلمنا القديس بولس الرسول فيتحدث عن البتولية حديثا فيا فيا يبين فيه سموها وقوتها وفعاليتها بل أنه روّج لهذا المبدأ ونادى به وتمنى لو أن الجميع أصبحوا بتوليين " أقول لغير المتزوجين انه حسن لهم اذا لبثوا كما أنا ••• أريد أن تكونوا بلا هم، غير المتزوج يهتم فيما للرب كيف يرضى الرب وأما المتزوج فيهتم بما للعالم كيف يرضى امرأته اذا من زوج فحسنا يفعل ومن لايتزوج يفعل أحسن " (١ كو ٧ : ٨ و ٣٢و٣٣و٣٨) ••

وكلمات بولس الرسول السابقة والتي ضمنها الأصحاح السابع من الرسالة الأولى الى كنيسة كورنثوس كتبت كاجابة على سؤال وجهته اليه كنيسة كورنثوس بخصوص موضوع البتولية والزواج والمعاشرات الزوجية • ويتضح ذلك من قوله " وأما من جهة الأمور التي كتبتم لي عنها فحسن للرجل أن لا يمس امرأة " ومن هذا السؤال يتضح أن مسألة البتولية والزواج قد ظهرت مبكرا في الكنيسة وهي لا ترتبط فقط بالرهبنة التي بدأت تأخذ وضعها على مسرح الحياة في أواخر القرن الثالث • وبعبارة أخرى نقول أن فترة البتولية لم تستحدثها الرهبنة •

والحق أن موجة شديدة من الحماس للبتولية اجتاحت المؤمنين منذ فجر المسيحية المبكر حتى أن بعض الأزواج والزوجات من فرط حماسهم للبتولية تساميا منهم عن الجسد امتنعوا عن المعاشرات الزوجية ، وعاشوا مع بعضهم البعض كأخوة وأخوات •

وفي رأينا أننا نستطيع أن نلمس هذه الناحية من الحديث الذي دار بين بطرس والسيد المسيح • قال بطرس " ها نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك " فأجاب يسوع وقال " الحق أقول لكم ليس أحد ترك بيتا أو أخوة أو أخوات أو أبا أو أما أو امرأة أو أولادا أو حقولا

لأجلي ولأجل الانجيل الا ويأخذ مائة ضعف الآن في هذا الزمان بيوتا وأخوة وأخــــوات وأمهات وأولاد وحقولا مع اضطهادات وفي الدهر الآتي الحياة الأبدية " (مر١٠ : ٢٩و٣٠ مت ١٩ : ٢٩ — لو ١٨ : ٢٩) • حينما قال بطرس أنه ترك كل شيء كان يعني أيضـــــا أنه ترك زوجته من ناحية المعاشرات الزوجية كزوجة • والمسيح العارف بالقلوب والنيـــات الذي عرف ما كان يعنيه بطرس بقوله هذا أجاب " ليس أحد ترك بيتا ••• أو أمرأة ••• " ويؤكد ذلك ما قاله معلمنا بولس بخصوص هذا الموضوع " ألعلنا ليس لنا سلطان أن نجـــول بأخت زوجة كباقي الرسل وأخوة الرب وصفا " (١ كو ٩ : ٥) • كانت زوجة تسارت أختا •

والقديس بولس الرسول في (١ كو ٧ : ٨ و ١٠) يقول للكورنثيين " لكن أقول لغيـــير المتزوجين والأرامل أنه حسن لهم اذا لبثوا كما أنا • وأما المتزوجون فأوصيهم لا أنـــــا بل الرب ، ان لا تفارق المرأة رجلها •

* ويحاول بعض البروتستانت ممن يهاجمون مبدأ الرهبنة أن يفسروا دعوة الرسول بولس للبتولية على أنها أمر يناسب الخدام فقط ، خاصة الذين يحملون في الكرازة والتبشـــــير بما يتطلبه ذلك من تنقل مستمر• لكن كلام الرسول في (١ كو٧) ليس موجها لرجال الديـن على اعتبار أن هذا يتناسب مع رسالتهم وأعبائها • بل أنه كلام موجه لجميع المؤمنيــــــن وفي ذلك يقول القديس يوحنا ذهبي الفم في تفسيره للأصحاح السابع من الرسالة الأولـــى الى كورنثوس " يقول البعض أن هذا الحديث الخاص بالتبتل موجه الى الكهنة ، لكـــــن — بحكم الكلام التالي — لا أستطيع أن أقر أن الأمر هكذا ، طالما أن الرسول قدم نصيحتـــه في عبارات عامة • لأنه ان كان يكتب الى الكهنة لكان قد قال انه حسن للمعلم أن لا يمســـس امرأة • لكنه يطلب ذلك بصفة عمومية بقوله " انه حسن للرجل — وليس للكاهن فقط — ان حديثه كله يستمر بنفس النغمة " •

ونود أن نشير — ونحن في هذا الصدد — الى أن الكتاب المقدس لم يشترط وجوب زواج الأسقف والشماس (دياكون) نعينما يقول " يجب أن يكون الأسقف بلا لوم بعل امرأة واحدة ... ليكن الشمامسة كل بعل امرأة واحدة مدبرين أولادهم وبيوتهم حسنا " (١ تي ٣ : ٢ — ١٢) . فان الوجوب هنا ليس مُنْصَبًّا على مبدأ الزواج نفسه بصفة عامة ، بل هو منصب على الزواج الأول . فالمعروف أن المسيحية لاتسمح بتعدد الزوجات وبذا يكون المقصود من هذا الكلام أن من يُختار للأسقفية أو الشماسية يجب — اذا كان متزوجاً — أن لايكون قد ارتبط بأكثر من زيجة واحدة بمعنى ألا يكون قد ارتبط بزيجة ثانية بعد وفاة الزوجة الأولى ... وقد تناول هذا الأمر قوانين الرسل ومجمع أنقرة سنة ٣١٤ م ومجمع قيصرية الجديدة كما تعرض له أيضا مجمع نيقية المسكوني سنة ٣٢٥م .

وأخيرا ابان مركز البتوليين في العالم العتيد القديس يوحنا الرائي في سفر الرؤيا حينما يقول " ثم نظرت واذا خروف واقف على جبل صهيون ومعه مئة وأربعة وأربعين ألفا لهم سمة أبيه مكتوبا على جباههم ... وهم يترنمون كترنيمة جديدة أمام العرش وأمام الأربعة حيوانات والشيوخ . ولم يستطيع أحد أن يتعلم الترنيمة الا ١٤٤ ألفا الذين اشتروا من الأرض . هؤلاء هم الذين لم يتنجسّوا مع النساء لأنهم أبكار . هؤلاء هم الذين يتبعون الخروف حيثما ذهب . هؤلاء اشتروا من بين الناس باكورة لله وللخروف وفي أفواههم لم يوجد غش لأنهم بلا عيب قدام عرش الله " (رؤ ١٤ : ١ — ٥) .

+ والكلام هنا في غاية الوضوح ويظهر عظم امتياز البتولية والبتوليين اذ يظهرهم أنهم ملازمون للمسيح يتبعونه حيثما ذهب ، وينفردون بترنيمة لم يستطع أحد لا أن يرددها بل وحتى أن يتعلمها ... أما السبب الوارد في النص السابق فهو لأنهم " لم يتنجسوا مع النساء لأنهم أبكار " وفي الطبعة البيروتية للانجيل نقرأ لفظة " أطهار " بدل " أبكار " وهذه ولاشك ترجمة خاطئة وهي مدونة " ابكار " في الانجيل في الترجمة القبطية والترجمة اللاتينية الشائعة Vulgate للقديس جيروم (ايرونيموس) وكذلك في

الاناجيل المكتوبة بلغات أخرى • والترجمة الانجليزية للكلمة هى .... Virgins
فى لغات أخرى كاللغة الفرنسية Viérges وهى كلمة معناها عذراء أو بكـــر
وهى من جهة اشتقاقها اللغوى ترجع الى الأصل اللاتينى.. Virgo – Virginis
بمعنى عذراء أو فتاة • وواضح أن الفرق كبير بين أبكار وأطهار • فلفظة أطهار لفظة عامة
أما كلمة أبكار فهى تحدد فئة معينة من الناس لهم سلوك خاص فى هذه الناحية • ويوضح
هذا الأمر القرينة الواردة فى الآية المذكورة " لم يتنجسوا مع النساء ..." وواضح أيضـا
ان الأمر لا يختص بخطية الزنا مثلا ، لكن عبارة لم يتنجسوا مع النساء انما هى كنايـــة
عن العفة الكاملة •

ومن تلك الايضاحات والآيات الصريحة الواردة فى سفر الرؤيا — وهو السفر الذى يتضمن
السماويات أو الاشياء العتيدة أن تكون فى العالم الآخر من كل ذلك يتضح سمو مركز الأبكار
أو البتولية • ليس فى هذا العالم فحسب بل فى العالم العتيد أيضا •

هكذا سرت موجة من الحماس الشديد للبتولية وتغلغلت فى نفوس الناس وضربت جذورها
بعمق فى تاريخ الكنيسة • ويؤيد ذلك ماحدث للبابا ديمتريوس الكرام البطريرك ١٢ مـــن
بطاركة الاسكندرية الذى رأس الكنيسة المرقسية لمدة ٤٢ عاما من سنة ١٨٨ الى سنة ٢٣٠م
كان هذا الأب من الناحية الشكلية متزوجا لكنه فى حقيقة الأمر كان يحيا مع زوجته حيـــاة
تبتل كامل كما يحيا الأخ مع أخته لمدة ٤٨ عاما • اختير ليكون بطريركا بواسطة سلفه البابا
يوليانوس باعلان الهى • وعلى الرغم من أنه كان انسانا عابدا ووصل الى الكرسى البطريركى
بطريقة الهية أعلنت وقتذاك لكن بعض شعبه احتجوا لكونه متزوجا ، وعلى الرغم أيضا من أن
الوحى الالهى بلسان الرسول بولس يسمح للأسقف أن يكون متزوجا " يجب ان يكون الأسقف
بلا لوم بعل امرأة واحدة " (١ تى ٣ : ٢ ، تى ١ : ٦) •
وهكذا الى أن ظهر ملاك الرب فى حلم وأعلمه بوجوب اعلان أو كشف حقيقة أمره جهـــارا
حتى تهدأ القلوب المضطربة ونعلن كشف لشعبه هذه الحقيقة بعد انتهاء قداس الأحــد

وتأكد ذلك أمامهم بمعجزة الهية حين لم يستطع جمر النار أن يحرق ثيابه ولا ثياب من دعيت زوجته • ولاشك أن هذا يبين الاتجاه الروحى النسكى الذى انتهجه مسيحيو تلك العصور (القرن الثانى الميلادى) قبل ظهور الرهبنة بسنوات طويلة •

أما آباء الكنيسة وكبار المعلمين المسيحيين فقد مدحوا العفة والبتولية والطهارة وأبانوا جمالها وقدسيتها وقوتها ••• ونظروا للزواج على أنه شىء جيد يأتى فى السمو بعد التبتل ، لمن لا يستطيعوا ضبط ذواتهم • ومن أمثلتهم بوليكاربوس (تلميذ يوحنا الرسول) واغناطيوس وهرماس وأثيناغورس وايريناوس واكليمنضس الاسكندرى وترتليانوس وأيضا مثوديوس أسقف صور الذى استشهد حوالى سنة ٣٤١م وكتب كتابا رمزيا فى هذا الصدد أسماه وليمة العشرة العذارى ، والقديس اغريغوريوس أسقف نيصص شقيق باسيليوس الكبير الذى أفرد لها كتابا خاصا • ولعل من أكبر دعاتها والمتحمسين لها العلامة أوريجينوس الذى وضعها فى مكانة عالية بالنسبة للمسيحيين ووصفها بأنها " التقدمة المقدسة التى تسر الله " ومن أقواله " لقد سمح الله لنا بالزواج لأننا لسنا جميعا أكفاء للحالة الأسمى ألا وهى حياة البتولية الكاملة " (ضد كلسوس ٨ : ٥٥) ومن أمثلتهم القديس كبريانوس الشهيد أسقف قرطاجنة والقديس أمبروسيوس أسقف ميلان ومعلم أوغسطينوس الذى كتب ثلاثة كتب عن هذا الأمر الى أخته مرسالينا وفيها يقول " ليست البتولية مستحقة المديح من حيث أنها توجد فى الشهداء بل لأنها هى نفسها تصنع الشهداء • ومن يستطيع أن يفهم بفهمه البشرى ذلك الذى لا تحويه الطبيعة فى قوانينها ، أو من يقدر أن يشرح فى أسلوب مألوف ذلك الذى هو فوق مستوى الطبيعة • لقد استحضرت البتولية من السماء ما يمكنها من أن تحاكيه على الأرض " • وبعد أن وصف البتولين بملائكة الله قال " وماقلته ليس كلامى طالما أن الذين لا يتزوجون ولا يزوجون هم كملائكة السماء فلا تعجب اذن اذا ماقورنوا بالملائكة الملتصقين برب الملائكة • من يقدر اذن ان ينكر أن هذا النهج من الحياة له نبعه فى السماء • ولم نجده بسهولة على الأرض الا بعد أن نزل الله آخذ اجسدا بشريا " •

ومن امثلة المتحمسين للبتولية أيضا القديس جيروم الذى تحمس لها حماسا شديدا فـى كتاباته وكتب عنها رسالة مسهبة الى عذراء من شريفات روما تدعى يوستوخيـوم Eustochium بدأها بالعبارة الآتية " اسمعى يا ابنتى وانظرى وأميلى سمعـك وانسى شعبك وبيت أبيك فالملك يشتهى حسنك " هكذا يتحدث الله فى المزمور ٤٤ الـى النفس البشرية حتى اذا ما اتبعت مثال ابراهيم تخرج من أرضها ومن أقاربها وتتـرك الكلدانيين أى الشياطين وتسكن فى أرض (كورة) الاحياء هذه التى من أجلها فى مكـان آخر تنهد النبى قائلا " وأنا أؤمن أنى اعاين خيرات الرب فى أرض الأحياء (مز ٢٧ : ١٣) ولكن بالنسبة اليك ليس كافيا ان تخرجى من أرضك مالم تنسى شعبك وبيت أبيك. وهكـذا اذ تزدرين بالجسد تنضمين الى حضن عريسك. لا تنظرى الى الخلف هكذا قـــال الكتاب " لاتبقى فى الدائرة ، اهرب الى الجبل لئلا تمسك (تهلك) (تك ١٩ : ١٧) انه لا يليق بمن أمسك بالمحراث أن ينظر الى الوراء أو يرجع الى بيته من الحقل ، ولابعـد أن يلبس رداء المسيح أن ينزل من السطح من أجل كساء آخر ".

على أى حال لسنا فى مجال تناول هذا الأمر واثباته من الناحية العقيدية لكننـــا نعرض له من الناحية التاريخية فقط.

ثانيا : الوحـــــدة والانفـــــراد

الميل لحياة الوحدة فى الصحارى والجبال والأماكن النائية بدأ يظهر منذ وقت مبكـر فى تاريخ الكنيسة المسيحية ويقول المؤرخ مكـــــــــــين .. Makean فى كتابه Christian Monasticism in Egypt منذ أيام المسيح كان المسيحيـون على علم بشعور الاعتزال عن العالم (يو ١٥ : ١٩ ، ١٧ : ١٤ ، ١ بط ١ : ١١) هـذه الآيات التى تشير الى اننا غرباء عن العالم ولسنا منه ويؤكد هذه الحقيقة الكتابات المسيحية المبكرة. ولاشك ان هذا الاتجاه قد تقوى بطبيعة الحال منذ وقت مبكر نتيجة الاضطهادات التى شنتها الدولة ضد المسيحية الناشئة ، وأيضا نتيجة تزايد الفساد وانتشاره فى العالم.

وحياة السيد المسيح كمثل أعلى للمؤمنين اوجدت هذه الرغبة وأيقظتها واشعلتهــــا كثيرا ماكان المسيح ينفرد فى الجبل ويصلى (مر ٦ : ٤٦ ، لو ٦ : ١٢) وهذا الامـــــر لم يكن ليحدث مرة واحدة بل بصورة متكررة حسبما يقول لوقا الانجيلى "كان فى النهار يعلم فى الهيكل وفى الليل يخرج ويبيت فى الجبل الذى يدعى جبل الزيتون" (لو ٢١ : ٣٧) وجدير بالملاحظة أن السيد المسيح قبل البدء فى خدمته الكرازية اقتاده الروح الى البريـة حيث أمضى أربعين يوما هناك (لو ٤ : ١ و ٢) كما أنه أظهر مجده على جبل عال فـــى حادث التجلى (لو ٩ : ٢٨ — ٣٦) • ومن هذا نلمس أن الرب يسوع لم يكن يلجأ الـــى الجبل أو مواضع الخلاء باعتبارها مواضع فسيحة بعيدة عن ضوضاء العالم ليعلم الجموع ، بـــل استخدم هذا فى حياته الخاصة لما فى ذلك من نفع للمؤمنين اذا ماحذوا حذوه •

وكان لسيرة ايليا ويوحنا المعمدان والقديس بولس الرسول أثر على الفكر المسيحى فــى هذه الناحية • ويؤكد ذلك القديس جيروم ويوحنا كاسيان • فايليا عاش عند نهر كريت وكانت الغربان تطعمه (١ مل ١٧) ويوحنا المعمدان كان فى البرارى الى يوم ظهوره لاسرائيـل" (لو ١ : ٨٠) الأمر الذى لأجله يدعوه القديس غريغوريوس النزينزى ساعحا كما يدعـــوه القديس يوحنا ذهبى الفم قائد الرهبان ومعلمهم •

وبولس الرسول اناء العهد الجديد المختار ، بعد أن آمن بالمسيح انطلق الــــى الصحراء العربية شرقى دمشق " لما سُرّ الله الذى افرزنى من بطن أمى ودعانى بنعمتـــه أن يعلن ابنه فىّ لأبشر به بين الأمم للوقت لم أستشر لحما ودما ولاصعدت الى أورشليـــم الى الرسل الذين قبلى بل انطلقت الى العربية " (غل ١ : ١٥ — ١٧) • فلاعجـــب اذن أن امتدح بولس فى رسالته الى العبرانيين مسلك من عاشوا فى البرارى والجبال والمغاير وشقوق الأرض • قال بعد أن استعرض بعض أبطال الايمان " وهم لم يكن العالم مستحقـــا لهم ، تائهين فى برارى وجبال ومغاير وشقوق الأرض" (عب ١١ : ٣٢ — ٣٩) • ولعـــل كلمات الرسول هذه تكون صدى لكلمات الرب نفسه " للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكـــار وأما ابن الانسان فليس له أين يسند رأسه " (مت ٨ : ٢٠) • فلاعجب بعد هذا أن اتجه

المسيحيون منذ وقت مبكر الى الأماكن المقفرة والبرارى والجبال ليحيوا فى وحدة مع اللـــه ويعبّر عن ذلك القديس يوحنا سابا المعروف باسم الشيخ الروحانى فى قول له يناجى فيـــه الله (أقطع حديثى مع الناس لأتحدث معك ، أغلق بابى لتفتح أنت لى بابك . أحـــرم نفسى من الشمس الطبيعية لتشرق أنت لى ياشمس البر والشفاء فى أجنحتهـــا ......)

ولاشك أن أماكن الخلوة نافعة جدا ولازمة لانماء الروح ، فبقدر اتساع الصحـــارى والبرارى بقدر ما تتسع آفاق النفس والقلب والفكر ... وقد أفاض الآباء النساك والقديســـون فى الكلام عن بركات الخلوة وأهميتها مما لايدخل فى موضوع دراستنا التاريخية .

ثالثا : التجـــــــــــرد

التجرد أو الفقر الاختيارى هو أحد أركان الرهبنة الأساسية وهو أن يتجرد الانســـان من جميع مقتنياته باختياره وارادته وأن يحيا فقيرا كما عاش سيده ومعلمه المسيح .

وتعاليم السيد المسيح فى هذه الناحية توضح هذا الأمر بصورة عجيبة . فقد حذر مـــن المال وسلطانه ومحبته . وقد بدأ ذلك بعظته على الجبل وهى بمثابة الخطاب الافتتاحـــى الذى يعبر عن اتجاهاته " لاتكنزوا لكم كنوزا على الأرض ... بل اكنزوا لكم كنوزا فى السماء لأنه حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك أيضا (مت ٦ : ١٩ - ٢١) وفى معرض حديثه عـــن وكيل الظلم قال " لايقدر أحد أن يخدم سيدين . لأنه اما أن يبغض الواحد ويحب الآخر أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر . لاتقدرون أن تخدموا الله والمال " (لو ١٦ : ١٣) أضف الى هذا كلماته " أنه يعسر أن يدخل غنىّ الى ملكوت السموات ... مرور جمل من ثقـــب ابرة أيسر من أن يدخل غنىّ الى ملكوت الله " فلما بهت التلاميذ من هذا الكلام وقالـــوا " اذن من يستطيع أن يخلص " نظر اليهم وقال " هذا عند الناس غير مستطاع ولكن عنـــد الله كل شئ مستطاع " (مت ١٩ : ٢٣ - ٢٦) . ثم أضاف الى ذلك قولـــــــــــــــــــ

" كل من ترك بيوتا أو أخوة أو أخوات أو أبا أو أما أو امرأة أو أولادا أو حقولا من أجل اسمي يأخذ مئة ضعف ويرث الحياة الأبدية " (مت ١٩ : ٢٩) ووجه الأهمية في كلام السيد المسيح أنه رسم المبدأ ووضع الى جانبه الجزاء فالسيد يدعونا الى أن نترك مقتنيات هذا العالم لنرث أثمانها في السماء .

وحينما تقدم رئيس من الأغنياء وسأله " ماذا اعمل لأرث الحياة الأبدية " أحاله الى الوصايا . ولما أعلن الرجل أنه حفظها منذ حداثته قال له " يعوزك أيضا شيء . بع كل مالك ووزع على الفقراء فيكون لك كنز في السماء وتعال اتبعني " فلما سمع الرجل ذلك حزن لأنه كان غنيا جدا . أما تعقيب الرب على ذلك فكان قوله " ما أعسر دخول ذوي الأموال الى ملكوت الله " (لو ١٨ : ١٨ — ٢٥) . لاعجب اذن أن فهم المسيحيون أقوال الرب هذه كما خرجت من فمه الالهي الطاهر ونفذوها حرفيا .. ولم يحدث هذا في وقت متأخر ولكن منذ فجر المسيحية . فقد كان المسيحيون يبيعون بيوتهم وحقولهم ويأتون بأثمانها ويقدمونها للكنيسة . وكمثل لذلك ذكرنا كاتب سفر الأعمال أسماء برنابا وحنانيا وسفيرة (أع ٤ و ٥) .

ولاشك أن الرسول بولس بكتاباته قد غذى الرغبة في حياة التجرد . فهو لم ينفك عن محبة المال موضحا أنها أصل لكل الشرور . وطلب الى المؤمنين أن يهربوا منها (١ تي ٦ : ١٠ ، ١١) . بل قال " لأننا لم ندخل العالم بشيء وواضح أننا لا نقدر أن نخرج منه بشيء ... فان كان لنا قوت وكسوة فلنكتف بهما " (١تي ٦ : ٧) .. ولنلاحظ الكلمات التى أستند بها الرسول " قوت وكسوة " أى ما يقيت الانسان ويكسى عريه . أما الآباء القديسون النساك فقد عاشوا حياة التجرد وتركوا لنا أقوالا ثمينة وضعوا فيها النقط فوق الحروف مظهرين حياة التجرد من المقتنيات .

قال القديس يوحنا التبايسي (الأسيوطي) — من كبار النساك — في رسالة له عـــن التدابير الروحانية " والآن أبدأ في الكلام عن طقس الكمال ، لأن التجرد من المقتنيـــات هو أساس هذا الكمال لكن مبدأ طريق الايمان . لأنه اذا ابتدأ الانسان بتصديق رجاء الحيـــاة المزمعة يبدأ أن يزدري بالامور الظاهرة وحين يحتقر كل شئ موضوع أمام بصـــره فانــــه بعد ذلك يحتقر ما يتحرك في ضميره ، أعني بذلك آلام الخطية الرديئة المتحركة في داخلـــه التي تظهر في الاعمال الخارجية التي هي محبة المجد الباطل والغضب والغيرة واحتقار النـــاس وحقد العداوة ... الخ . فان لم يبدأ الانسان بالتجرد عن المقتنيات لا يمكن أن يتجـــرد عن آلام الافكار الرديئة . وان لم يتجرد عن حركات الآلام السمجة لا يقتني نقاوة النفس التي هـــي مبدأ مســـيرة الانسان الجديد .

وقال القديس فيلوكسينوس من مشاهير النساك في الكنيسة السريانية في القرن السادس في حديث له عن التجرد " الانسان لا يستطيع أن يسير في طريق الكمال ما دام يملك شيئا جسدانيـــا لانه حسب مقدار الاقتناء تكون رباطات النفس التي تهبط جناحات العقل فتعطل طيرانهـــا في طريق الســـماء ... مقتنيات العالم هي أربطة للأعضاء وقيود لسائر الحواس يرتبط بهـــا الانسان ظاهرة وداخله ... " .

وواضح مما تقدم أن حكمة الآباء النساك في التجرد من المقتنيات هي لكي يقود هم ذلـــك التجرد من الشهوات وجذور الخطايا الخفية . وفي ذلك يقول القديس يوحنا التبايســـي " ماذا نقول عن كثيرين ممن يظنون أنهم يدركون الكمال بالتجرد من المقتنيات ؟ بل كمـــا أن الصوم عن الاطعمة ينبغي أن يقترن بالصوم عن الشرور هكذا أيضا يجب أن يقترن التجرد عـــن المقتنيات الجسدية بالتجرد عن الخطايا الرديئة لان الانسان عندما يتعرى من الأشـــياء الخارجيـــة لا يتخلص في الحال من الشرور الباطنية بل يجب أن يصل الى أن لا يقتني في نفســـه شـــيئا ســـوى محبة الله فقط " .

رابعـا : الطاعـــة

الطاعة فضيلة مسيحية أمر معروف ومسلم به ... والسيد المسيح كمثل أعلى للبشرية أظهـر الطاعة في شخصه الالهي المبارك . يقول القديس بولس عبد المسيح " مع كونه ابنا تعلّم الطاعة " (عب ٥ : ٨) ، " واذ وجد في الهيئة كأنسان وضع نفسه وأطاع حتى الموت موت الصليـب " (في ٢ : ٨) .

مصـر مهد الرهبنة المسيحية

من الامور المستقرة بين العلماء والدارسين أن الرهبنة المسيحية ظهرت وازدهرت في مصـر قبل غيرها من أجزاء العالم المسيحي . ولعل ذلك راجع الى عدة عوامل بعضها يتصـل بطبيعة مصر ذاتها ، وبعضها يتناول طبيعة الانسان المصري ، والبعض الآخر يتصل بعوامـل أخرى دينية وسياسية واقتصادية :

(أ) طبيعة مصر الجغرافية :

مصر عبارة عن واد ضيق تحيط به الصحاري والقفار من الشرق والغرب ، وتكتنفه بعض الرمـال المالية والتلال . ان منظر القفار يحث على الزهد في الدنيا ويميت في القلب حركات الشهـوة نحو العالم والعالميات كما يقول مار اسحق السرياني . أضف الى هذا أن طقس مصر ومناخهـا المتجانس تقريبا صيفا وشتاء وقلة أمطارها . كل ذلك ساعد على صلاحية الجبال والتيافـي والصحاري المصرية لسكنى الرهبان والمتوحدين . والمتنقل في صحراء وادي النطرون مثلا يرى بقايا القلالي المنفردة القديمة . ومنها يرى كيف هيأت الطبيعة المأوى للرهبـان والمتوحدين القدامى .

(٢) طبيعة الانسان المصرى :

الانسان المصرى متدين بنظرته ، محب للتأمل حتى منذ عصور الوثنية • استطاع بعمق تفكيره وروحه الباطنية ان يصل الى مستويات سامية فى الحياة الدينية ، اذا ما قورن بغيره من الشعوب المعاصرة فى العالم القديم وقتذاك ، بما فى ذلك الشعوب التى ازدهرت مدنياتها ، كالشعب الاغريقى الذى قدم للعالم من يعتبرون آباء الفكر والفلسفة • والحضارة المصرية القديمة — التى ماتزال مخلفاتها قائمة فى المعابد والتماثيل والمسلات والاهرامات وغيرها — تشهد بما لا يدع مجالا للشك ان الدين — على الأخص عقيدة الخلود والحياة الاخروية — كان هو الباعث الأول والأكبر على قيام تلك الحضارة ••• وما أن وصلت المسيحية الى مصر ، ووجدت طريقها الى قلوب وعقول المصريين ، وآمنوا بها ، صقل الروح القدس شعور التدين المتأصل فى المصريين وحبهم للتأمل ، منقيًا اياه من كل ما هو وثنى ، نفدوا عمالقة فى الروح ، أبطالا فى النسك ، شغوفين بحياة التأمل • هذا ما نجده واضحا فى أقوال معلمى كنيسة الاسكندرية قبل ظهور الرهبنة من أمثال كليمنضس الاسكندرى الذى أظهر ميلا واضحا للنسك والتبتل خاصة فى كتابيه المتنوعات والمعلم • وقد الأمر نجده واضحا كذلك فى بردية البهنسا المعروفة باسم ... Oxyrhynchus Papyri التى ترجع الى أوائل القرن الثالث الميلادى وقد اكتشفت بين سنتى ١٨٩٧ ، ١٩٠٤ أما العلامة أوريجينوس فحياته وكتاباته تظهران ميلا شديدا للبتولية والنسك والفقر الاختيارى بدرجة أكبر وأوضح من أستاذه كليمنضس الاسكندرى •

(٣) العامل الديـــــنى

يرى بعض المؤرخين أن القرن الرابع الذى شهد أوائله توقف الاستشهاد فى سبيل الايمان المسيحى فى عهد الملوك والأباطرة الرومان المسيحيين ابتداء من قسطنطين الكبير شهد أيضا موجة من فتور الحماس الدينى بين رعايا الامبراطورية الرومانية • • وقد وجد الناس فى الرهبنة — بمفهوم النسك واماتة الذات وهجر العالم واحتمال المشقات فى أعماق القفار —

انتصارا على أهواء الجسد ، وتقديم الذات ذبيحة حية لله .. انها نوع من الاستشهاد بدون سفك دم . ولذا فقد نظروا للرهبنة - من هذه الزاوية - على أنها امتداد لعصر الاستشهاد الذى كان قد توقف .

(٤) العامل السياسى :

ونقصد به سلسلة الاضطهادات الدينية المستمرة التى كان يصبها الأباطرة والحكام الرومان الوثنيون على المسيحيين من رعاياهم . وكان نتيجة ذلك أن هرب بعض المسيحيين من وجه الاضطهاد الى الصحارى حيث وجدوا الأمان هناك . ومن أمثلة ذلك ما يذكره تاريخ البطاركة للأنبا ساويرس أسقف الأشمونيين فى سيرة البابا الاسكندرى ديونيسيوس (٢٤٦ - ٢٦٤) من أن القرن الثالث الميلادى شهد أعدادا كثيرة من المسيحيين تهرب الى الصحارى المصرية (وادى النطرون والصحراء الشرقية) من الاضطهاد الرومانى . ومن بين هؤلاء أسقف مليج الذى هرب الى الصحراء الشرقية ولم يعد يعرف له خبر بعد ذلك ويحدثنا البابا ديونيسيوس أن بعض الفارين الى الصحراء الشرقية فضلوا البقاء بها بعد انتهاء الاضطهادات .

(٥) العامل الاقتصادى

لقد ساءت الأحوال الاقتصادية فى مصر خلال القرن الثالث الميلادى ، وعمت الفوضى أنحاء البلاد . ولم تكن هناك قوانين أو ضوابط فى القرى او المدن المصرية . وغدت الضرائب عبئا ثقيلا زاده ثقلا ، قسوة جامعيها الذين كانوا يختارون من وجهاء المدن أو أنحاء الامبراطورية الأخرى . وقد سلك هؤلاء طرقا وحشية فى جباتها ، فمن عجز عن دفعها كان يجلد ويسجن ويباع أطفاله عبيدا . ولقد دفعت هذه الحالة عددا كبيرا من الفلاحين وصغار المزارعين الى ترك أراضيهم والتنازل عنها لكبار الملاك من الأجانب . كما فضلوا ترك بيوتهم وأراضيهم وأولادهم ليحيوا حياة اللصوص ، أو ليتركوا العالم بما فيه الى حياة الرهبنة

التى توفر لهم الأمن رغم مافيها من شظف العيش وخشونته •

+ على أنه يجب الانتباه جيدا الى أن العاملين السياسى والاقتصادى كانا عاملين ثانويين شجعا على ترك العالم ، لكنهما لم يكونوا بحال من الأحوال من العوامل الرئيسية لأنه لو كان الخوف من الاضطهاد الدينى مثلا هو العامل الأول والدافع الأكبر لترك العالم بقصد الرهبنة ، لعاد جميع هؤلاء الفارين من وجه الاضطهاد الى العالم ثانية بعد زواله فى الربع الأول من القرن الرابع الميلادى ، وذلك بعد انتهاء موجات الاضطهاد بصدور مرسوم ميلان الذى أصدره الملك قسطنطين سنة ٣١٣م باعتبار المسيحية ديانة معترف بها فى أنحاء الامبراطورية الى جانب الديانات الأخرى • لكن العكس هو الصحيح •• فان القرن الرابع الذى شهدت أوائله نهاية الاضطهادات الدموية كان هو العصر الذهبى للرهبنة المسيحية •

أنظمة الرهبنة

اجتازت الرهبنة عدة مراحل حتى وصلت أخيرا الى وضعها الذى نراه حاليا • بدأت بنظام العزلة ثم مالبث أن تطور الى نظام الجماعات الرهبانية وأخيرا الى نظام الشركة الرهبانية •

أولا : نظام العزلة

اتفق عامة الكتاب فى تاريخ الرهبنة على أن أصول النظام الرهبانى المسيحى ظهر أول ماظهر فى مصر المسيحية خلال القرون الاولى لانتشارها فى العالم القديم كما اتفقوا على أن مؤسس الرهبنة هو المصرى انطونيوس St. Antony ، فى النصف الثانى من القرن الثالث المسيحى • ومع ذيوع تلك النظرية فاننا نقول ان الحركة النسكية المسيحية بدأت فى مصر قبل أنطونيوس بزمان طويل ، وهى فى ذلك قد تمشت مع اقبال الناس على اعتناق المسيحية بكثرة فى أواخر القرن الاول وأوائل القرن الثانى الميلاديين ، كما أثبتت ذلك

الشعوب البربرية القبطية الحديثة وغيرها . والواقع انه صاحب دخول المسيحية الى مصر وعمل الروح القدس وبتأثير كتابات العهد الجديد ــ ظهور حاسة روحية نسكية عالية بين أقباط مصر هدفها تقليب الاحساسات الروحية على النزعات الجسدية . وكان نتيجة ذلك ان انتشرت نماذج فردية وجماعية لتقرير حياة نموذجية ، وعاشوا على مستوى الفرد أو الجماعة ــ في عزلة على أطراف المدن أو القرى . ولكن لم يكن هناك منهج روحي معين يعيش عليه هؤلاء .

وعلى الرغم من قلة المصادر التي تمدنا بمعلومات كثيرة عن العصر المسيحي المبكر في مصر فاننا نجد بعض الأمثلة لحياة الرهبنة ترجع الى القرن الثاني الميلادي :

المثل الأول : ماجاء في مجموعة حياة القديسين Acta sanctorum التي بدأ بجمعها الاخوة الرهبان البولنديون Pollandistes نسبة الى مؤسسها J. Bollandus سنة ١٦٤٣ بمدينة أنتورب ببلجيكا تحت يوم ١٤ أبريل أنه في عهد الامبراطور انطونينوس بيوس Antoninus Pius (١٣٨ ــ ١٦١م) نزح أحد أثرياء الاسكندرية ويدعى فرنتونيوس Frontonius حوالي سنة ١٥٠ م الى برية نتريا وفي صحبته سبعون مسيحيا ليعيشوا عيشة الرهبان زاهدين في الحياة الدنيا وراغبين في التقشف والعزلة ، على أن هذه الجماعة تذمرت على قائدها لنقص الغذاء وقلة المؤن التي تمون أحد أغنياء الاسكندرية أن يبعث بها اليهم تقرضتوا ثم ندم معالمها بموته . ويعلق العلامة والس بدج Wallis Budge على ذلك بأن تلك الحملة الرهبانية المنظمة لم تكن بطبيعة الحال الا واحدة من حملات متعددة كانت تحدث تباعا دون أن تسجلها الكتب المعاصرة وذلك لحدوثها في الخفاء بغير ضجة لأن المسيحية أساسها انكار الذات ...

والمثل الثاني : هو القديس الأنبا بولا السائح الذي يمثل نظام العزلة الرهبانية في أجلى صورها بل يعتبر أحد أقطابها العظام . وقد كتب لنا سيرته القديس جيروم سنة ٣٧٤م مؤكدا أنه أول المتوحدين في مصر .

ولد الأنبا بولا بمدينة طيبة حوالى سنة ٢٢٥ م تقريبا (يقول جيروم أن الانبا بـــولا فى اضطهاد ديسيوس سنة ٢٥٠ كان له من العمر ١٦ سنة) من أبوين موسرين وتيتم وهو فى سن السادسة عشرة فتولى الوصاية عليه زوج أخته الذى كان يتحين الفرص للتنكيل به لنهــب ثروته • تثقف بثقافة عصره المزدوجة أى الاغريقية والمصرية كما درس أصول الدين المسيحى الذى تعلق به • ولما أحس أن زوج أخته أضمر تسليمه لايدى الولاة أبان احدى موجـــات الاضطهاد التى كانت تجتاح المسيحين فى العصر الرومانى (اضطهاد ديسيوس) قـــرر ان يهجر العالم ويتوجه الى الصحراء • ووصل فى تجواله الى المنطقة التى يقوم فيهـــا الدير الذى يحمل اسمه حتى اليوم عند البحر الأحمر • عاش فى هذه العزلة لايرى انسانـــا ولايراه انسان يستقى من عين ماء ويأكل من ثمر النخيل ويكتسى برداء من لينه المجدول • وظل الانبا بولا فى توحده المطلق مختفياً عن العالم حتى ٣٤١ م حين تم لقاؤه بالأنبا انطونيـــوس الذى كان بتدبير الهى • فلقد خالج الظن انطونيوس أنه أول من سلك طريق الرهبنة وانفرد للنسك فى البرية لكن الله أوحى اليه بأن فى البرية رجلا أقدم منه زمانا وأفضل قداســـة فخرج للبحث عنه مسترشدا بالله حتى اهتدى الى حيث كان يوجد الانبا بولا • تبـــارك القديسان من بعضهما وأخذ الانبا بولا يسرد تاريخ حياته وما كاد ينتهى الأنبا بولا مـــن سردها حتى أتاه غراب بخبزة كاملة • وعلق الأنبا بولا على ذلك بقوله انه منذ ستين سنـــة والغراب يأتيه كل يوم بنصف خبزة واليوم أتى بخبزة كاملة • ثم قال بولا لانطونيوس لقد أرسلـــك الله لتوارينى التراب فأطلب اليك أن تحضر الرداء الذى وهبك اياه البابا اثناسيوس لتكفيــنى به • فأسرع أنطونيوس لاحضار الرداء وقبل أن يصل عائدا الى مغارة الأنبا بولا أبصر جوقـــة من الملائكة ترتل حاملة روح هذا البار • ولما دخل المغارة وجده قائماً يصلى على ركبتيه ورأســـه منحنيا ويديه مرتفعتين فظن أنه حى يصلى فجثا بقربه ليشاركه الصلاة الا أنه أدرك بعــــد مدة أنه نارق الحياة فخلع عنه الثوب الليف واحتفظ به لنفسه حيث كان يلبسه فى الأعيـــاد وكفنه عوضا عنه الرداء الذى أحضره له ... ويقال أن الرب دبر أسدين حفرا قبره اذ لـــم يكن لانطونيوس شىء يحفر به • وقد انتقل الأنبا بولا من العالم شيخا شبعان نسكـــا

بعد أن قضى فى الوحدة الكاملة المذهلة أكثر من ٩٠ عاما متواصلة • ومن الكتّاب القدامى الذين دونوا لنا حياته بلاديوس صاحب بستان الرهبان والقديس جيروم•

وقد سلك القديس أنطونيوس نفسه نظام العزلة فى بداية حياته النسكية وفى مقتبلها قبل أن يتجمع حوله المعجبون بطريقه • على أنه يلاحظ أن حياة التوحد ـ نتيجة ارتباطها بحياة كبار النساك ـ ظلت تستهوى وتجذب كثيرين فى القرنين الثالث والرابع• ومن أمثلة هؤلاء ـ ممن ذكرهم بلاديوس ـ يوحنا الأسيوطى الذى اقتنى موهبة النبوة وعاش حبيسا فى مغارة بجبل أسيوط وكان يقتات على بعض الخضروات التى كان يتناولها من طاقة فى مغارته • ومن أمثلتهم ايليا الذى توحّد فى صحراء انطنوى الموحشة لمدة ٧٠ عاما وسليمان الذى توحد فى نفس البرية لمدة ٥٠ عاما فى مغارة • والأب شاريمون Chaeremon والأب يوسف اللذان توحّدا بجوار بنفسيس Panephysis بمنطقة المنزلة • واللذان التقى بهما يوحنا كسيان أما فى الصحراء الشرقية ـ المعروفة باسم صحراء بورنيرى أو صحراء كالاموس ... Calamus والتى تبعد عن العمران نحو سبعة أو ثمانية أيام • فقد سكنها متوحدون منهم أرخيبيوس Archebius وموسى وبولس وغيرهم ممن التقى بهم يوحنا كسيان وذكرهم فى كتاباته •

ثانيـا : نظام الجماعات الرهبانية

وقد تأسس هذا النسق من الحياة الرهبانية على يدى القديس أنطونيوس • ويمكن القول بأن هذا الدور هو الدور الحق من أدوار تاريخ الرهبنة المصرية بشكلها المألوف وهو الذى يعرف باسم الرهبنة الأنطونية • ويعتبر ماسبقه مقدمات مرتجلة مهدت لهذا النظام الجديد ولاشك أن هذا التطور كان أمرا طبيعيا ازاء الظروف القاسية التى كانت تكتنف حياة المتوحدين الذين عمدوا انتزاع انفسهم انتزاعا كاملا من كل الصلات البشرية • ولم يقيموا أى وزن للأخطار والمخاوف التى كانت تتهددهم سواء من جهة الحيوانات الضارية أو قطاع الطرق من أنصاف المتوحشين الذين امتلأت بهم البرارى والجبال وقتذاك • أضف الى هذا الأزمات الروحية والنفسية التى كان يتعرض لها هؤلاء المتوحدون • كان طبيعيا اذن أن يفكر هؤلاء فى

وسيلة للتخفيف من عزلتهم بعض الشيء ، فأخذوا في تركيز صفوفهم في مناطق معينة حول الشخصيات الكبرى من الآباء الروحيين ليتتلمذوا عليهم . كانوا يتجمعون حول أب روحاني أشتهر بالقداسة والعلم كان كل منهم يحيا حياة توحّد في مغارة أو صومعة او قلاية دون أن يقطع عليه أحد وحدته ، ولذا فان الراهب يسمى باليونانية (μοναχος) من الكلمة اليونانية Monos ومعناها alone, Solitary فكلمة راهب من جهة اشتقاقها وأصلها اللغوي تعبّر عن انسان يحيا بمفرده أو بعيدا عن آخرين . أما الكلمة العربية راهب وهي أسم فاعل من الفعل رهب يرهب فهو راهب أي خائف الله فهي لاتعبر تعبيرا دقيقا عن طبيعة حياة الراهب وفكرة الرهبنة أساسه كانت مساكن هؤلاء الرهبان متقاربة الى حد ما . وبذا كانوا يتغلبون على الصعوبات المادية التي كانت تواجههم . كما كان هذا التقارب يسهّل عليهم الاتصال بأبيهم الروحي ليشد أزرهم ويحسن توجيههم ويعينهم للتغلب في حروبهم الروحية . ووسط كل جماعة رهبان كانت تبنى كنيسة يتوجّه اليها الرهبان عند غروب شمس السبت حيث يقضون الليل في التسابيح والاسترشاد بالآباء الشيوخ عن طريق تقديم الأسئلة اليهم ويحضرون القداس الالهي في فجر الأحد ثم يعود كل منهم الى قلايته وجدير بالذكر أنه لم تكن هناك قواعد مكتوبة يسير عليها الرهبان المتوحدون في هذا النظام كما سنرى في قوانين باخوميوس . لكن كانت هناك تقاليد وعادات مرعية ألفوها أو استوحوها من آبائهم الروحيين وجعلوها أساسا لاجتهادهم .

أما أهم الجماعات الرهبانية فظهرت في المناطق الاتيه :

١ ـ الصحراء الشرقية : حيث أسس الأنبا أنطونيوس أول جماعة رهبانية ولذا دعي " أب الرهبان " وجوهر الرهبنة الأنطونية كان ينطوي على العزلة الفردية التامة ، واغراق الراهب في ضروب الزهد والتقشف والصوم . وربما كانت حياة القديس أنطونيوس ذاتها من أبلغ المثل لهذا النوع من الرهبنة . وقد كتب عنها في تفصيل القديس اثناسيوس بطريرك الاسكندرية المشهور الذي تتلمذ له بعض الوقت .

حياة القديس أنطونيوس : ولد الأنبا أنطونيوس سنة ٢٥١ م ببلدة قمن العروس مركز الواسطى محافظة بنى سويف (أنظر حياة أنطونيوس بقلم أثناسيوس الرسولى) من أبوين مسيحيين • وكان والده من ذوى اليسار يملك مزرعة تبلغ مساحتها حوالى ٣٠٠ فدانا • تعلم عن والديه قواعد الدين المسيحى • ويبدو أنه لم يأخذ بقسط وافر من التعليم الدنيوى العام • ومن المقطوع به أنه لم يتصل بالثقافة اليونانية على الاطلاق فظل مصريا صميما فى طبعه وتفكيره وفى سن العشرين تقريبا فقد والديه تاركين له مع الثروة العريضة أختا تصغره يقوم على تربيتها غير أن أنطونيوس الذى استهواه الدين المسيحى بروحانيته ومبادئه كان كثير التردد على الكنيسة • دخل الكنيسة ذات مرة ليصلى فسمع الشماس يتلو فصل الانجيل الذى يقول فيه السيد المسيح " أن أردت ان تكون كاملا فاذهب وبع أملاكك واعط الفقراء فيكون لك كنز فى السماء " (مت ١٩ : ٢١) • أحس أنطونيوس أن الكلام موجه اليه فباع أملاكه ووزعها على المحتاجين وأبقى جزءا قليلا لأخته الصغيرة التى أودعها بيتا من بيوت العذارى • وفى مرة أخرى سمع قول الانجيل " لاتهتموا للغد لأن الغد يهتم بما لنفسه • يكفى اليوم شره " (مت ٦ : ٣٤) • فاعتزل خارج القرية مسترشدا باحدى المتعبدين الذى حثه على ضبط نفسه حتى لايستحوذ عليه القلق من جهة أسرته أو أخته ولا يرتبط بأمور هذه الحياة الوقتية • بل يشغل نفسه بالأصوام والصلوات وقراءة الكتاب المقدس بلا انقطاع • وبعد قليل أحس أن المكان الذى اختاره لخلوته مع الله قريب من المدينة فتركه وعبر نهر النيل الى الصحراء الشرقية وكان له من العمر ٣٥ عاما • لكنه توقف عند قلعة قديمة قريبة من النيل فى منطقة يكتنفها الهدوء هى منطقة بسبير Pispir (مكانها حاليا دير الميمون فى منتصف المسافة بين الطفح وبنى سويف تقريبا) فى هذه المنطقة عاش أنطونيوس مدة عشرين عاما لكنه مالبث بعدها أن توغل فى الصحراء وظل يتنقل من مكان الى مكان حتى انتهى به المطاف الى المكان الذى بنى فيه الدير الذى مازال يحمل اسمه حتى اليوم قرب البحر الاحمر ولم تكن حياة هذا العملاق فى النسك سهلة هينة لأن الشيطان حاربه بكل أنواع المحاربات الممكنة لكنه فى كل ذلك ظل ثابتا كالطود • كان الشيطان يبدو له حينا فى صورة امرأة جميلة

وحينا في صورة وحش كاسر وحينا آخر في شكل هو مزيج من الانسان والحيوان • وفي احدى المرات أنهك القتال قوى أنطونيوس فلم يستطع أن يقف ولاحتى أن يجلس ، بل ظل مستلقيا على الأرض في شبه اغماء بينما انتهز عدو الخير هذه الفرصة فأخذ يهاجمه في قسوة • لكن هذا الرجل كان متسلحا بقوة بددت قوى الشر من أمامه حتى في الوقت الذي بدا فيه خائرا • فيقول مخاطبا قوى الشر " انني هنا ـ أنا أنطونيوس ـ ولن أنحني تحت ضرباتك مهما قسوت فيها • لأنني لن أسمح لشيء في الوجود أن يفصلني عن محبة المسيح ربي والهي " •

على أن الأنبا أنطونيوس لم ينعم طويلا بالخلوة التي تاقت نفسه اليها لأن صيته ذاع فتقاطر الناس عليه من كل أنحاء مصر بل ومن أنحاء مختلفة من العالم ، بعد أن وهبه الله موهبة الشفاء وصنع المعجزات •

وفي مدة اقامة انطونيوس في بسبير Pispir تجمع حوله كثيرون من محبي الحياة النسكية والتأملية ممن أعجبوا بحياة أنطونيوس وجهاده • وعلى الرغم من سكنى هؤلاء الأخوة حول أنطونيوس الا أنه ظل معرضا عنهم فترة طويلة يحيا في عزلته الخاصة لكنه أخيرا رضخ لتوسلاتهم وقبل رعايتهم ، ويقال أن ذلك كان حوالي سنة ٣٠٥ م ولاشك أن لهذا التاريخ أهمية خاصة فهو تاريخ أول منشأة رهبانية في مصر بل في العالم كله •

وبعد أن قضى في العبادة والوحدة نحو خمس وثمانين سنة أنتقل الى المسيح الذي أحبه سنة ٣٥٦م وله من العمر ١٠٥ سنة • وخلال الخمسة وثمانين سنة لم يترك أنطونيوس وحدته الا مرتين حين أحس أن المؤمنين أخوته يتعرضون لمحنتين ، كانت المرة الأولى سنة ٣١١م في زمان الاضطهاد الذي أثاره مكسيميانوس ضد المسيحيين • فقد قصد الاسكندرية لأنه اشتهى أن ينال اكليل الشهادة ، وأن لم يسمح الله بذلك فانه يقبل أخوته • وفي الاسكندرية كان يتردد على السجون ليزور المقيدين فيها وكان يشجعهم

ويثبتهم • وعندما كان يأتي الجند لنقلهم الى مكان الاعدام كان يصحبهم منشدا أناشيد التسبيح مرددا الأقوال الالهية • وعلى الرغم من أن القديس كان يظهر نفسه معلنـــا ايمانه لكـــن الله حفظه ولم يسمح أن يستشهد مع ألوف المسيحيين الذين استشهدوا • وفـــي أثناء اقامته بالاسكندرية كان ضيفا على ديديموس الضرير الذي كان مديرا للكلية اللاهوتيـــة وقتذاك • وتوطدت أواصر المحبة والصداقة بينهما حتى أن الأنبا أنطونيوس قال لـــه ذات مرة • لا تكتئبيا صديقي ديديموس لأنك محروم من العينين اللتين تشترك فيهما مع الحشرات • بل تهلل لأن الله منحـــك عين الباطنة التي تشارك بها الملائكة في رؤية الله " • وقد عاد أنطونيوس الى خلوته بعـــد أن انتهى هذا الاضطهاد • أما المحنة الثانية التي ترك فيها خلوته فكانت عند استفحال البدعـــة الأريوسية • هبط من الصحراء الشرقية الى المدن المصرية سنتي ٣٣٧و ٣٣٨ لكي يساعد في نضـــال أثناسيوس ضد الأريوسيين • ويبدو أن هناك سببا آخر ملحا اذ أن الاريوسيين ادّعوا كذبا أن أنطونيوس على ايمانهم ومعتقدهم • بل انه اتصل بالامبراطور قسطنطينوس كاتبا اليه يطلب رجـــوع البابا أثناسيوس من منفاه في تريف • ولا شك ان شخصيته كانت من أكـــبر الدعامات لرد المصريين الى حظيرة الايمان السليم • وبعد أن قام بدوره عـــاد الى قلايتـــه فـــي داخل الصحراء •

أما عن شخصيته فقد أطال في وصفها البابا أثناسيوس في كتابه " حياة أنطونيوس " وكـــتب ديديموس يقول " كان ذا عقلية وقادة • حكيما يدرك حقيقة الناس بالفراسة بحيث كان الذين يـــأتون اليه يمتلئون دهشة اذ يجدون أنه ادركهم على حقيقتهم رغم عزلته وابتعاده عـــن النـــاس • كما كان حديثه ملحا بطعم سماوي بحيث كان سامعوه يشعرون بغبطة قلبه ولا يحسدونه علـــى ما وصل اليه من كمال روحي حبّب فيه النفوس وقرّب اليه القلوب • كذلك كان الأنبا أنطونيوس يمتاز بالصبر والجلد في المناقشة فيصغي لكل ما يقال له ويجيب بكل تؤدة واتزان فلا عجب اذا قيل أن الله قد أقامـــه أبا روحيا لأبناء وطنه ولجميع الملتفين حوله " •

ولم يقتصر أثر الأنبا أنطونيوس على مصر وحدها بل تعداها الى بقاع أخرى من العالم القديم فلم تنقض ثلاثون سنة على انتقاله حتى عثر فى تريف Tréves (على الحدود الفرنسية البلجيكية) على نسخة من سيرته بقلم اثناسيوس ، وقد تجمع فى المنزل الصغير الذى وجدت فيه هذه النسخة الثمينة بعض النساك الذين اتخذوا حياة هذا الناسك نموذجا لحياتهم النسكية . وحدث فى اواخر صيف تلك السنة عينها أن أحرزت هذه السيرة انتصارا عظيما حينما كانت سببا فى اجتذاب أغسطينوس من حياة الاستهتار والخطية الى حياة النسك والقداسة . ومع أن أغسطينوس لم يعش عيشة أنطونيوس الصحراوية الا أنه اقتفى أثره فى السعى الى اخضاع الارادة الانسانية للارادة الالهية ، متخذا شعاره ما قاله أنطونيوس عن الامكانيات الانسانية حيث قال " لا يتوهمن انسان أن بلوغ الكمال بعيد المنال أو غريب عن الطبيعة البشرية . فالناس يركبون البحار ليتمكنوا من دراسة الفلسفة اليونانية . أما مدينة الله فهى داخل القلب البشرى . والصلاح الذى يطلبه الله كائن داخل كل فرد منا ، ولا يتطلب الا أن نخضع ارادتنا للارادة الالهية " واذا كان الكتاب الذى وضعه البابا أثناسيوس عن أنطونيوس له هذا الأثر العظيم فكم تكون حياة هذا الناسك نفسها ؟

وكان نظام حياة الأنبا أنطونيوس بسيطا على الرغم من اغراقه فى التقشف . فقد كان يتناول القليل من الخبز المجفف مع الملح ولا يشرب سوى الماء . وكان يصوم حتى الغروب وأحيانا كان يطوى ثلاثة أيام أو أربعة أيام صائما . وأحيانا كان صومه يمتد الى فترة أطول وكان يقضى لياليه ساهرا عاملا بيديه . فاذا نام كان نومه على حصير من سعف النخيل وكان رداؤه عبارة عن فروة غير مدبوغة يلبسها مقلوبة . ولم يكن يتدثر بغطاء فى نومه الا بعد أن شاخ .

لم يضع الأنبا أنطونيوس نظاما للحياة النسكية • ولم يطالب النساك بأكثر من التقشف والصلاة والعمل اليدوى اقتداء بحياة المسيح وبولس الرسول وعملا بارشاد الملاك الذى ألبسه الاسكيم وأوصاه هذه الوصية حتى ينجو من الملل • وقد حدد الأنبا أنطونيوس الساعات التى تقام فيها الصلوات وتنحصر فى تلاوة المزامير•

لاغرو اذن أن تجتذب شخصيته أعدادا كبيرة من الراغبين فى الحياة النسكية الذين تتلمذوا على يديه ، وأصبح هو فى نظرهم المثل الأعلى للحياة الكاملة ، يقتدون به وينسجون على منواله • ولكن النظام الأنطونى ظل فى أساسه نظاما فرديا أساسه العزلة والتقشف والصوم • وكان الاخوة من تلاميذ أنطونيوس يتنافسون فى هذا الميدان • وممن تتلمذوا على يدى هذا الناسك العظيم ايلاريون Hilarion مؤسس الرهبنة فى فلسطين ومقاريوس المصرى (الكبير) أب الاسقيط فيما بعد ، وبولس البسيط •

(٢) البرية الغربية أو المنطقة المعروفة بوادى النطرون :

وادى النطرون عبارة عن واد مستطيل بأقصى الشمال الشرقى للصحراء الغربية وتشتهر سلسلة التلال التى تطوقه من الشمال باسم صحراء نتريا أو جبل نتريا • وقد تركزت الجماعات الرهبانية فى هذا الوادى فى ثلاث مناطق رئيسية هى نتريا والقلالى وشيهيت وكان لهذه التجمعات الرهبانية أثرها الكبير وأهميتها فى تاريخ الكنيسة القبطية • فقرب هذه المنطقة من الاسكندرية عاصمة البلاد ومقر الكرسى البطريركى آنذاك جعلها قبلة الراغبين فى الحياة الرهبانية ، سواء كانوا مصريين أو وافدين الى مصر من الخارج ، كما جعل رهبانها على صلة بالاحوال الدينية فى كنيسة الاسكندرية ابان فترة الجدل العقيدى الذى احتدم فى القرنين الرابع والخامس ، ومكنهم من القيام بدور فى تلك المنازعات • بل أن بطاركة الاسكندرية لجأوا الى الجماعات الرهبانية بوادى النطرون ابان تلك المنازعات العقيدية وما صحبها من اضطهادات من جانب ملوك الدولة البيزنطية • أضف الى هذا الشهرة المقدسة التى نالها وادى النطرون لاسيما بعد أن انتشرت قصة مرور العائلة المقدسة

به أثناء وفودها الى مصر ، ومباركة السيد المسيح وهو طفل له • لهذه العوامل كلها مجتمعة حرص البطاركة الأقباط طيلة العصور الوسطى على طبخ الميرون بدير أنبا مقار بوادى النطرون ، بل أن رهبان الاسقيط كانوا لا يعترفون برسامة البابا الاسكندرى الا اذا زار دير القديس مقاريوس مباشرة عقب رسامته واحتفل به فيه بطقوس خاصة ... ونعرض الآن للتجمعات الرهبانية الثلاثة :

(أ) جبل نتريا أو البرنوجى ⲠⲒⲈ ⲡⲓⲚⲟϫⲓ : ويقصد به الصحراء الواسعة حيث تنتشر تلال قليلة الارتفاع الى الجنوب الغربى من اقليم هرموبوليس بارفا (دمنهور الحالية) بنحو ١٤ كيلومترا ، قرب قرية البرنوجى تبع مركز دمنهور قرب حوش عيسى • وتمثل صحراء نتريا بتلالها الحافة الشمالية والشمالية الشرقية لوادى النطرون • وتسمية " نتريا " هى التسمية اليونانية واللاتينية ، أما البرنوجى فهى التسمية القبطية وتعزى هذه التسمية (نتريا) الى ميناء كان يحمل هذا الاسم وتقع على القنال الذى كان يربط فرع النيل الكانوبى وبحيرة مريوط وكان يشحن منها النطرون سواء المستخرج منها او المستجلب من وادى النطرون الى الاسكندرية ومنها الى الخارج • وكانت هذه المدينة هى المدخل الى الصحراء المتاخمة التى حملت اسم نتريا أيضا • وكان الرحالة القدامى الوافدون من الخارج يصلون اليها من الاسكندرية بعد عبور بحيرة مريوط ويصلون بعضهم عن طريق فرع من فروع النيل الذى كان يصب فى بحيرة مريوط ويعرف الآن باسم البحر الفارغ • وكان جبل نتريا كله أقرب الى الريف منه الى عمق الصحراء ، ومن كان يرغب فى عزلة أكثر كان عليه أن يرحل جنوبا الى منطقة القلالى التى كانت تبعد عن نتريا مسافة عشرة أميال • وعلى ذلك فقد كانت منطقة جبل نتريا تصلح كبداية سهلة للحياة النسكية نظرا لوقوعها على حافة الصحراء وقربها من الريف الذى كان يعتمد عليه الرهبان للعمل فى حقوله فى مواسم الحصاد فضلا عن قضاء حاجاتهم وتصريف عمل أيديهم •

وقد امتلأت نتريا بالنساك المتوحدين فى القرن الرابع • وقد ذكر بالاديوس أنه سكنها ٥٠٠ راهب ، وظلت تزدهر الحياة الرهبانية فيها ، لكن شيئا فشيئا أخذ نجمها يأفل

ويمكن القول أن شمسها غربت حوالى منتصف القرن الخامس الميلادى ، نتيجة نزوح الكثير من متوحديها الى مناطق القلالى الاكثر هدوءا ، ولتعرضهم لضغوط واضطهادات من أعداء الأرثوذكسية ابان حركات الجدل العقيدى التى احتدمت فى القرنين الرابع والخامس.

تمتعت نتريا بشهرة واسعة بسبب من سكنها من المتوحدين الذين كانوا عمالقة فى النسك الى جانب شهرتهم فى العلوم اللاهوتية والدينية ، الامر الذى اثار عليهم حفيظة الهراطقة . وقد زار البابا أثناسيوس الرسولى نتريا وعاش فيها بعض الوقت مدة نفيه الثالث (٣٥٦ — ٣٦٦) . وقد أشار الى القديس آمون مؤسس الرهبنة فى نتريا فى كتابه حياة أنطونيوس مظهرا اعجابه الشديد بقداسته ونسكه . وفى نتريا عاش القديس كيرلس الكبير عمود الدين بطريرك الاسكندرية ٢٤ وتلقن الحكمة والمعرفة الروحانية على يد سرابيون الكبير الزائع الصيت من معاصرى القديس أنطونيوس ورفيق آمون . وممن زاروها نتيجة شهرة نساكها — المؤرخ روفينوس الاكويلى ٣٧٣م ومعه القديسة ميلانيا الأسبانية والقديس جيروم ومعه بولا الايطالية ٣٨٥م وبالاديوس كاتب بستان الرهبان فى التسعينات من القرن الرابع .

أما عن نساك نتريا العمالقة فكثيرون يأتى فى مقدمتهم القديس آمون مؤسس رهبنتها والأنبا ثيودوروس والأنبا أور وكانا يعيشان معا عيشة مشتركة والأنبا ايسيذوروس الذى زار الأنبا أنطونيوس الكبير ورافق البابا أثناسيوس الى روما سنة ٣٤١م ، وأنبا نثنائيل وأنبا بيشور (بيهور) الذى تتلمذ أولا للأنبا أنطونيوس قبل ان يسكن فى نتريا ، والأنبا بامو PAMW الذى يذكر فى المراجع الافرنجية باسم بامبو وفى العربية باسم بموا والذى خلف الأنبا آمون فى تدبير المتوحدين والأخوة فى كل نتريا .

القديس آمون :

ولد حوالى سنة ٢٧٥ فى بلدة قريبة من الاسكندرية . توفى والده وهو فى سن الثانية

والعشرين وأرغمه عمه على الزواج على غير ارادته • عاش ١٨ سنة مع زوجته في بتولية كاملــة
يزاها بعد أن أقنعها بسمو حياة البتولية • ثم انطلق الى نتريا لكنه بعد أن تأثرت حولـــه
جماعات الرهبان فضّل الانفراد ، فانتقل جنوبا الى الصحراء الداخلة فيما عرف باسم سيليا أو منطقة
القلالي وقيل ان هذا الأمر قد تم بناء على مشورة الأنبا أنطونيوس الذي أتـــى الى جبل نتريـا
زيارة الأنبا آمون (بعد أن زار آمون أنطونيوس أكثر من زيارة) لكن سرعان ما انتشر بهـــا
الرهبان الذين أثروا حياة الوحدة والهدوء •

تنيح حوالي سنة ٣٣٧ م بعد أن أمضى ٢٢ سنة في حياة الصحراء ، وتعيد الكنيسة بتذكـار
نياحته يوم ٢٢ بشنس وقد وهبه الرب نعمة عمل المعجزات ، لذا كان محل احترام الجميع حتى الأنبا
أنطونيوس نفسه الذي شهد لاستقامة روحه وفضائله • ومن التابعين الذين سجلوا لنا سيرة أمون
بلاديوس في كتابه بستان الرهبان وروفينوس في كتابه تاريخ الرهبنة •

(٢) منطقة القلالي : وتعرف باليونانية باسم " كليا " (من الكلمة اليونانية ΚΕλλΑ
وهي غرفة الراهب أو صومعته) وتعرف باللاتينية باسم " سيليا " Cellia وبالقبطية ΝΙΡΙ
(ومعناها المساكن او القلالي) وفي المراجع العربية (المونا " Mond التي يظـــن أنهـــا
تعريب لاصل لغوي قبطي ••• ومهما يكن الأمر فقد أطلق عليها هذا الاسم لانتشار القلالـــي
(جمع قلاية وهي تعريب وتحريف للكلمة اليونانية ΚΕλλΑ) المنفردة بها ، والــــتي
سكنها المتوحدون ••• ويذكر التاريخ أن القديس أنطونيوس هو الذي اختار منطقة القلالـــي
في زيارة له الى نتريا كطلب آمون لتكون خاصة بالمتوحدين الذين افتقدوا حياة السكون في نتريـــا
ثم عمرت هذه البرية بكبار النساك المتوحدين ، ويذكر بلاديوس أنه كان بها ٦٠٠ راهــب
بينما يذكر المؤرخ روفينوس أنه في سنة ٣٧٢ م كان يبلغ عدد رهبانها مضافا اليه رهبان نتريـا
٣٠٠٠ ، ما لبثان وصل الى ٥٠٠٠ أواخر القرن الرابع • ومن أشهر نساك منطقة القلالـــي
ايفاجريوس قس القلالي ومقاريوس الاســــــكندري •

القديس مقاريوس الاسكندرى : على الرغم من الشهرة الواسعة التى أحرزها هذا القديس فى مجال النسك ، فاننا نجهل الكثير من حياته قبل الرهبنة بل وفى الرهبنة ذاتهـــا كل ما نعرفه عنه أنه نشأ بالاسكندرية وثنيا وكان يعمل خبازا الى جانب بيع الفواكه المجففة والنبيذ . تعمّد فى سن الاربعين وقيل أنه زار القديس أنطونيوس بالصحراء الشرقيـــة حوالى سنة ٣٢٥ م . ترهب فى نتريا وتتلمذ على يد القديس بامو TT ويتحـــل نشاطه وذكائه وحبه للنسك غدا نموذجا رائعا للتعلم واستماع الفضائل ، وأخذ يبـــارى كبار النساك فى نسكهم وفضائلهم ، وعرف عنه شدة صرامته النسكية . رسم قسا سنة ٣٥٥ م وخلف أباه الروحى القديس بامو فى رياسة جبل نتريا . ولاشتياقه لحياة الوحدة نزح مـــن نتريا الى القلالى سنة ٣٧٣ م وصار مدبرا لرهبانها ورئيسا عليهم وقد بلغ عددهم ٦٠٠ راهب . عرف عنه حب التنقل والحياة بين سائر الجماعات الرهبانية ، ولعل ذلك راجـــع الى رغبته الملحة فى تعلم الفضيلة لذا فقد كان كالنحلة النشيطة التى تنتقل من زهـــرة الى زهرة لتمتص رحيقها المختلف . لذا ذكر عنه انه كان له أربع قلالى أحدها فى نتريـــا والثانية فى القلالى والثالثة فى الصحراء الليبية (الصحراء الداخلية) والرابعة فى شيهيت حيث كان يتردد على القديس مقاريوس المصرى (الكبير) مؤسس الحركة الرهبانية فى شيهيت وفى سنوات قليلة أتقن الفضيلة والعمل الروحى وغدا بالحق راهبا عمّالا . زار دير الأنبـــا باخوم فى طبانسين ، وكان يوافق الصوم الكبير وكان يصوم أسبوعا أسبوعا يطويه طايـــا ولا يأكل سوى ورقة كرنب واحدة كل يوم أحد . هذا فضلا عن سهره وشغله اليدوى ووقوفـــه على رجليه دون أن يحنيهما ، حتى نزح رهبان الدير الى أبيهم باخوم بعد أن أصابهـــم صغر النفس حينما أخذوا يقارنون بين جهادهم وجهاده . وقد منحه الله نعمة عمـــل المعجزات وشفاء الأمراض . وتتلمذ على يديه تلاميذ كثيرون . عرفت عنه البشاشة والترحاب بالزائرين والترفق بالمبتدئين فى طريق الرهبنة وقد تنيح يوم ٦ بشنس سنة ٣٩٣ م وقـــد ناهز عمره المائة عام .

برية شيهيت أو الأسقيط :

" شيهيت" هي التسمية القبطية ϢⲒϨⲎⲦ معناها ميزان القلوب ، بينما "أسقيط" هي التسمية اليونانية ، وهي مشتقة من الكلمة اليونانية ΑϹΚΗΤΗΡΙΟΝ أي منسك او مكان العبادة ، ومنها كلمة ΑϹΚΗΤΗϹ أي ناسك • وتبعد عن منطقة القللي بنحو ٥٠ كيلو مترا الى الجنوب والجنوب الشرقي • والقديس مقاريوس المصري (الكبير) هو المؤسس الأول للرهبنة في شيهيت ، وكان رواد ها الأوائل من متوحدي نتريا والقللي من أمثال الأب أموي (الأب الروحي للقديسين بيشوي ويوحنا القصير) والأب ايسيذ ورس من متوحدي نتريا وكاهن منطقة القللي ، وكان هو أول كاهن في شيهيت والأب شيشوي الذي نزح بعد ذلك الى البرية الشرقية وسكن مغارة الانبا انطونيوس بعد نياحته • ونقدم هنا ملخصا لسيرة القديس مقاريوس الكبير •

القديس مقاريوس الكبير : ولد سنة ٣٠٠ في شبشير منوفية • أجبره أبوه على الزواج لكنه عاش مع زوجته في بتولية تامة • توفيت زوجته فوالده ثم والدته بالتتابع مما هيأ له فرصة الانطلاق لحياة التعبد التي كان يعشقها ••• سكن أولا عند أطراف قريته بالصحراء المتاخمة لها على نحو ما فعل الأنبا أنطونيوس في بدء حياته النسكية • كان ذلك في سن الثلاثين ، وظل في هذا الموضع عشر سنوات ، رسم في نهايتها قسا بعد أن تكاثر عليه أهل قريته وخضوعا لأمر أسقف الاقليم وكان ذلك سنة ٣٤٠ في ذلك الموضع ناله اتهام كاذب من فتاة عذراء أخطأ معها شاب وحملت منه سفاحا ، فاتهمته أنه هو الذي أخطأ معها فناله هزء شديد وضرب مبرح • لكن أظهر براءته وقداسته بأن اعترفت الفتاة بكذبها وظلمها للقديس بعد أن تعسرت في الولادة وكادت تلفظ انفاسها ، وإذ شعر بأن اهل القرية خرجوا ليعتذروا له ويكرموه ، هرب الى الاسقيط حوالي سنة ٣٤٠ وكان على علم بهذه المنطقة حيث كان يتردد عليها في حياة والده مع قوافل التجارة التي كانت تجلب الملح •

زار الانبا أنطونيوس في بدء توحده حوالي سنة ٣٤٢ ، وكان على صلة بآباء نتريا والقلالي ، نال شهرة واسعة في عالم النسك فهرع الى شيهيت وتتلمذ عليه كثيرون من محبي حياة الوحدة ، بعضهم من خارج مصر من أمثال مكسيموس ودماديوس ، وقد بلغ عدد الرهبان الذين كان يرعاهم في الاسقيط نحو خمسة آلاف راهب .

وقد عاين أنبا مقار أربعة تجمعات رهبانية في شيهيت في مواضع أديرة البرموس وأنبا مقار والأنبا بيشوى وأنبا يوأنس القصير وكان هذا التجمع الاخير يبعد عن منطقة الأنبا بيشوى بنحو ٤ كيلو مترات في الاتجاه الجنوبي الشرقي .

ومن الشخصيات الناسكة الشهيرة التي تتلمذت للقديس مقاريوس وعاصرته مكسيموس ودماديوس وأنبا يوأنس القصير وأنبا بيشوى وايسيذوروس القس كاهن شيهيت والأنبا بفنوتيوس الذي خلف أنبا مقار على رياسة الاسقيط والأنبا بيمين والأنبا موسى الاسود التائب والأنبا اشعياء الاسقيطي والأنبا سلوانس ، وبعد جهاد كبير تنيح سنة ٣٩٠ .

(٣) صعيد مصر : واشتهرت فيه تجمعات رهبانية في المناطق الاتية :

أ — منطقة بسبير . Pispir في الصعيد الأوسط وهي المنطقة التي بدأ فيها القديس أنطونيوس حياته الرهبانية الأولى قبل أن يتوغل في الصحراء شرقا حتى وصل الى الجبال النائية المطلة على البحر الأحمر . وقد تجمع حوله في هذه المنطقة كثيرون تتلمذوا له وعاشوا تحت ارشاده الروحي .

ب — منطقة البهنسا — وهي التي كانت تعرف في العصر الروماني باسم اوكسيرنكوس Oxyrinchus في الصعيد الأوسط أيضا غربي منطقة بني مزار الحالية ، وهي مصدر من مصادر الآثار القبطية الرومانية . ذكرها جيروم فيما كتب ، وقال أنها كانت تعج بآلاف من الرهبان . ويستمع الزائر الى أصوات العبادة والتراتيل الدينية وهي تملأ عنان السماء

آناء الليل وأطراف النهار . وذكر انه كان بها أسقف لرعاية عشرين ألف راهبة من العذارى وقد يكون العدد مبالغاً فيه . لكنه على أي حال يلقي ضوءاً عما بلغته الحركة الرهبانية من انتشار .

جـ — منطقة انتنوى Antinoe : وهى موضعها حاليا قرية الشيخ عبادة على ضفة النيل الشرقية قرب ملوى . زارها بلاديوس مابين سنتى ٤٠٦ ، ٤١٢ م وقضى بها أربعة أعوام كاملة يتنقل فى أرجائها نظرا لكثرة من سكنها من النساك . وقد ذكر أنه وجد فى حدود المدينة اثنى عشر ديرا عامرا بالراهبات ، وخارجها ألف ومائتى راهب دائبين على العمل اليدوى لسد حاجاتهم المعيشية فى زهد ونسك . وقد ذكر جيروم أنه كان يسكنها متوحد اسمه ايليا بلغ من العمر مائة وعشر سنوات قضى منها سبعين عاما متوحدا يقتات على ثلاثة دراهم من الخبز وثلاث زيتونات يوميا ، وقيل انه فى شبابه كان يكتفى بأكلة واحدة فى الاسبوع .

د — منطقة ليكوس Lycus : بالقرب من أسيوط الحالية ، وقد أمها كثيرون ممن ابتذبتهم العجائب التى كان يصنعها الناسك العظيم يوحنا المصرى بالتبايسى أو الأسيوطى والذى ولد سنة ٣٠٤ وسكن فى جبل ليكوس سنة ٣٣٠ وأقام به الى نياحته سنة ٣٩٤ . وقد اشتهربين معاصريه بموهبتى النبوة وصنع المعجزات حتى ذاع صيته خارج مصر ، وسعى الى طلب مشورته أناس من جميع الطبقات منهم الامبراطور ثيئود وسيوس الكبير . وقد أعجب منه بلاديوس أيما اعجاب ويدعوه نبى مصر . وقيل انه عاهد نفسه ألا يتناول مطبوخا على النار بما فى ذلك الخبز ، ولذا فقد كان يقتات على الاعشاب .

هـ — منطقة شنوبسكيون Chenoboskion : أو شنيسيت Schenesit وهى منطقة قصر الصياد بمحافظة قنا . قامت بالقرب منها عدة جماعات رهبانية أشهرها الجماعة التى كانت تحت قيادة القديس بلامون — الأب المرشد الروحى للقديس باخوميوس أب الشركة — وكان صارما فى حياته اقتصر طعامه على الخبز والملح ، وكان يقضى معظم ليله فى الصلاة والتأمل وكان يعول نفسه بعمل يده .

ثالثا : نظام الشركـة الرهبانيـــــة

تعتبر الديرية الباخومية ثالث الأدوار الكبرى وخاتمتها في تطور الحياة الرهبانيـــة في مصر والتي اصطلح على تسميتها بحياة الشركة فللمرة الاولى في تاريخ الرهبنة المسيحيـــة نسمع عن أديرة منظمة ذات وضعية ونظم ثابتة تخضع لها كل الجماعة كبيرها وصغيرها • وتنسب الحركة الديرية الى رائدها الأول وواضع أسسها وتنظيماتها الأبا باخوم الذي يسمونـــــه أب الشركة — الذي بنى أول دير في العالم ولكي ندرك هذا النظام لابد لنا من استعراض حياة القديس باخوم وأيضا حياة الأنبا شنودة الذي يلقب برئيس المتوحدين الذي أسس مركـزا ديريا كان له أهمية في تاريخ الديرية والقومية المصرية •

الأبـــا باخـــوم ABBA PACHOME :

ولد باخوم في بلدة شينوبسكيون Chenoboskion التي تعرف بالقبطية ϢⲈⲚⲈⲤⲎⲦ بمنطقة طيبة ويقال أن مكانها الحالي بلدة الصياد بمحافظة قنا • Schenesit وذلك حوالي سنة ٢٩٠ م من أبوين وثنيين • لانعرف شيئا عن سني حياته المبكرة • أنخرط في سلك الجندية الرومانية وهو في سن العشرين وتنفيذا لأوامر الامبراطور قسطنطين الكبـــير في الحرب التي أثارها عليه خصمه مكسيميانوس سنة ٣١٠ م • ولكن هذه الحملة كانت قصيرة الأمد لأنحدار مكسيميانوس وقتله في نفس السنة بأمر قسطنطين وهكذا عاد باخوم الى الحيـــاة المدنية • ومع أن انخراطه في الجندية كانت قصيرة الا أن تأثيرها في حياته كان بالنســـبة له أنها أخرجته من الجو الوثني الذي ألفه الى حيث أستطاع التعرف على المسيحيين وعلى نهجهم وعاداتهم • كما أن الحياة العسكرية لقنته حياة النظام والطاعة والعمل اليدوي والمعيشـــة الاجتماعية وهي من الامور التي غيرت بها قوانين الرهبانيـــة فيما بعد حيث أن الكتيبة الـــتي كان هو ضمن أفرادها عسكرت عند مدينة لاتوبوليس .. Latepolis " إسنا حاليـــــــا " فخرج سكانها الى الجند يطعمونهم ويقضون حاجاتهم في دعة ودماثة فدهش باخوم من ذلـــك المسلك وتساءل عما حدا بهؤلاء الناس الى إبداء العطف عليهم • فقيل له أنهم مسيحيـــون

ينفذون وصايا سيدهم • فما كاد يسرّح من الجندية حتى عكف على دراسة هذا الدين الجديد وانتهى الامر باعتناقه المسيحية سنة ٣١٤م • وهكذا كسبت المسيحية واحدا من أكبر زعمائها • ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل أنه قرر تكريس نفسه وترك العالم • فتتلمذ لشيخ ناسك يدعى بلامون ⲡⲁⲗⲁⲙⲱⲛ ⲁⲡⲁ. حاول بلامون في بادئ الأمر أن يثني باخوم عن حياة النسك لانها حياة قاسية • وأوضح له نظامه بأنه لا يتناول من الطعام إلا كسرة واحدة من الخبز الجاف مع قليل من الملح مرة واحدة يوميا مدة الصيف ومرة كل يومين شتاء • وأنه لا يستعمل الزيت ولا يشرب النبيذ • وأنه يقضي نصف الليل او الليل كله في ترديد المزامير وقراءة الكتب المقدسة ونصحه أن يفكر طويلا قبل الإقدام على هذه المعيشة • لكن باخوم طلب من معلمه أن يطلب عنه الى المسيح لكي يهبه القوة • عندئذ قبله بلامون تلميذا وعاش معه بضع سنين قيل انها سبعة • ولما اطمأن بلامون الى الدرجة الروحية التي بلغها باخوم نصحه أن يعتزل في صومعة على أن لا يتلاقيا الا دفعة واحدة كل سنة • أطاع باخوم معلمه ومرشده وانصرف الى جهة مقفرة حيث قرية طابنسين ⲦⲀⲂⲈⲚⲚⲎⲤⲒ ومعناها نخلات ايزيس (لانها كانت في العصر الفرعوني مكرسة لهذه الالهة • وهي بمنطقة دندرة شمال قاو الحالية على الشاطئ الشرقي للنيل) واتخذ مغارة بها مسكنا له •

كان كفاح باخوم شديدا في هذه الوحدة الجديدة • وقيل أنه في احدى المرات قضى أربعين ليلة متوالية لم يذق خلالها النوم عاكفا على العبادة والصلوات ••• وازاء كل هذا أخذ هذا الناسك الشاب يتأمل حياة الوحدة وما يكتنفها من مخاوف ومتاعب يتراجع كثيرون ممن يشتهون هذه الحياة أمام صعابها • فأخذ يصلي الى الله ليرشده إن كان هناك طريق آخر • استغرق باخوم في تأملاته وما يمكن ان يصنع في هذه الحالات وكيف يمكن أن يأخذ بأيدي الساعين نحو الكمال المسيحي • وقيل أن الرب استجاب لقلبه المتدفق حبا وصلواته • فظهر له ملاك الرب بينما كان جالسا في مغارته وقال له " لقد أخلصت فيما يخصك من الأمور • ومن العبث أن تظل هكذا مرتبطا بهذه المغارة • فهيا اخرج من هنا واجمع كل الرهبان الشبان • وأقم معهم حسب المخطط الذي سأعطيه لك وأفرض عليهم ما يلزم

من توانين ثم سلمه لوحة نحاسية كتب عليها نص القوانين التي تتعلق بحياة الرهبان
أكلهم ، معيشتهم ، عملهم ، ملبسهم ، عبادتهم ، طريقة نومهم
وقيل أن الملاك الى جانب هذه الوصايا المكتوبة سلم اليه نصائح شفهية • وكل مايهمنا
في هذا الأمر أن هذه القواعد التي سار عليها الأبا باخوم في نظامه الديرى •

قام باخوم للحال وعرض الرؤيا والوصايا على معلمه بلامون فأمره بتنفيذها جميعا
ومن ثم عاد باخوم الى طابنسين حيث بنى أول دير في العالم حوالي سنة ٣٢٠م وكان
لهذا العمل من الآثار القومية التي تفاعلت ومازالت تتفاعل مع الزمان •

ولقد قسم الأبا باخوم الرهبان الى أقسام كل بحسب طباعه ومميزاته وأطلق على
كل قسم حرف من الحروف الأبجدية القبطية • ومن جهة العمل اليدوى توسع فيه • فلم يكتف
بصنع السلال لكن رهبانه كانوا يمارسون الحرف المختلفة كالزراعة والتجارة والحدادة وغيرها
وكان الهدف من العمل مزدوجا ، أولهما كسب العيش ، وثانيهما التغلب على البطالة
وما يصاحبها من مضار روحية • علما أن الرهبان كانوا يرددون المزامير اثناء العمل اليدوى•

وتتلخص قوانين الأبا باخوم التي تحرص بقوانين الشركة فيما يلى :

(١) طالب الرهبنة : بعد التأكد من أنه غير هارب من العدالة كان يقضى ثلاث سنوات
تحت الاختبار يتعلم خلالها القراءة والكتابة ان كان يجهلهما • وكان لزاما عليه أن يحفظ
عن ظهر قلب عشرين مزمورا ورسالتين من العهد الجديد • وكان يقيم أثناءها في سكن مجاور
لباب الدير • فان ثبتت صلاحيته يصام راهبا وينتقل للسكن في قلالي الرهبان داخل الدير•

(٢) الملابس : كانت تمتاز بالبساطة التامة • يرتدى الراهب داخل الدير قميصا
قصيرا من غير أكمام يصل الى الركبتين مصنوعا غالبا من التيل الخشن يعلوه منطقة (حزام
عريض) من الجلد يشد بها وسطه ويغطى رأسه بقلنسوة وكان يسير عارى القدمين • أما

خارج الدير فكان يغطى كتفيه بجلد خروف أو ماعز (وهى من مميزات الرهبان فى ذلك الوقت) ويضع عباءه فضفاضة مخاطة بأعلاها قلنسوة الرأس ومرسوم على جبهتها علامة الدير وهو صليب ملون بلون خاص ليدل على المؤسسة التى ينتمى اليها الراهب وكان يلبس فى قدميه صندلا مفتوحا •

(٣) الطعام : كان يقدم للرهبان فى قاعة المائدة مرتين كل يوم ظهرا ومساء ولم يكن الحضور الزاما حتى تتاح الفرصة لبعض النساك الذين يتبعون نظاما خاصا فى حياتهم ولا يتناولون الأوجبة واحدة من الخبز والملح عند الغروب • وكان الطعام يتألف من الخبز والخضر والحساء والفاكهة والجبن وعلى ذلك فقد كان الرهبان الباخوميون نباتيين لايأكلون اللحم ولايشربون النبيذ الا فى ظروف المرض وكانوا يدخلون قاعة المائدة حفاء الاقدام حتى لايسببوا ازعاجا وهم لابسون القميص والفروة والعباءة والطاقية والقلنسوة ويأكلون فى سكون دون أن ينظر الواحد منهم الى جاره • وفى أعلى القاعة منصة يقرأ من فوقها أحد الرهبان بعض القراءات المقدسة حتى ينتهى الرهبان من الطعام •

(٤) النوم : كانت القاعدة فى النظام الباخومى هى سكنى الرهبان كل ثلاثة فى قلاية ومازال هذه الآثار واضحة فى بقايا دير القديس سمعان (انبا هدره) قرب أسوان ويكل منها ثلاث مصاطب لكل منها رأس مرتفعة من الطين على شكل وسادة • وكان ينوض على الراهب أن ينام فى النصف الأول من الليل بينما يقضى النصف الثانى فى الصلاة والتسبيح حتى يصبح الصباح • وكان ممنوع أن يتجاذ باطراف الحديث داخل قلاليهم •

(٥) العمل اليدوى : كان اجباريا لا يعفى منه أحد حتى رؤساء الأديرة • ومن الحرف التى اشتغلوا بها صناعة الحصر والمقاطف من سعف النخل وفتل الحبال من الليف ، واشغال النجارة والحدادة والحياكة والرعى والزرع والعجن والخبز والطبخ ••• الخ • كما كان يوجد من يشتغل بأعمال نساخة الكتب •

(٦) التعليـــــم : وكان الأبا باخوم ثوريا في هذه الناحية اذ قضى على الأميـــة في أديرته بأن جعل القراءة والكتابة شرطا من شروط الالتحاق في الدير على نحو ماذكرناه ونظم ثلاثة دروس يومية للمبتدئين في الساعات الاولى والثالثة والسادسة من النهار (أى أول النهار والتاسعة والثانية عشر بالتقويم الافرنجي الحالي) بالاضافة الى دروس أخـرى عامة يقدمها رؤساء الأديرة بأنفسهم يومي الأربعاء والجمعة في تفسير الكتب المقدســـة والتعاليم المسيحية . وكان حضورها اجباريا على الجميع . على أن التعليم جميعــــه كان يهدف الى الناحية الدينية وحدها . وكانت المكتبات مفتوحة لكل قارئ يريد الاستفـادة بما فيهـــا .

(٧) العبـــادة : وضع لها نظاما ثابتا في شقيها الجماعي والانفرادي . كانـت الصلاة الجماعية تتام بالكنيسة ثلاث مرات كل يوم : في الصباح ووقت الظهر وفي المســـاء وهذه يحضرها جميع الرهبان بلا استثناء . أما الصلاة الانفرادية فكان الرهبان يؤدونهـــا في قلاليهم ، كما كانوا يشتركون في القداس الالهي في صباح يومي السبت والاحد .

(٨) العقـــاب : لا مندوحة من وجود القوانين الرادعة في الجماعات الكبيــرة المعدة لردع الخارجين على النظام والمستهترين . وكان العقاب يتدرج من اللوم والتوبيـخ العلني والحرمان من وجبات الطعام فضلا عن الاخطاء الصغيرة كالضحك أو النظر يمينـــــا أو يسارا على مائدة الطعام ، أو العقاب البدني أو الجلد بالسياط والحبس للمتمردين ومــن اليهم ، الى الطرد من الدير لكل من لا يرجى اصلاحه .

(٩) الادارة : وتتضح عبقرية باخوم ومقدرته الفائقة في التنظيم الذى وضعه لادارة أديرته : كانت الادارة المحلية لكل دير توكل الى رئيسه يعاونه نائب رئيس وله أمين ومخازن للمكتبـــة بالاضافة الى الفئات المختلفة التي تتطلبها ظروف العمل في كل دير كالمعلمين والخبازيــن والنجارين والبنائين والحدادين والزراع والحمالين والنساجين ... الخ فكان لكل من هـذه الفئات رئيس يشرف على عملها تحت إشراف رئيس الدير أو نائبه . ولما كثر الرهبان وتنوعـــوا

قسموا الى أسر كل أسرة تضم رهبان جنس معين وذلك بعد ان أجتذبت حياة الشركة رهبانا من أمم متباينة • وكان لكل أسرة معلم من جنسها للتفاهم مع بني جنسه ولارشادهم •

أما نظام المركزيـــة فيتجلى في أن كل ثلاثة أو أربعة أديرة متقاربة يكونون مايسمى بالقبيلة يشترك رؤساؤها في انتخاب واحد من بينهم ليكون زعيما لتلك القبيلة • وهـــؤلاء يجتمعون من وقت الى آخر للتشاور فيما يهمهم • ثم أن جميع رؤساء الأديرة وزعماء القبائل يخضعون خضوعا مطلقا لرئيس الأديرة العام سواء باخوم أو خليفته • وكان اشراف الرئيس العام يتم عن طريقين : الأول الزيارات • والثاني عقد اجتماعين عامين كل سنة يحضرهما جميع رهبان المؤسسات الباخومية في الدير الرئيسي في ببو Pabau وكان الاجتماع الأول يعقد على عيد الصعود والاجتماع الثاني في الثاني والعشرين من شهر مسرى وفي اجتماع مسرى يبحث طرق مسائل الأديرة واستعراض حالتها ومحاسبة رؤسائها • كان المجلس يقرر السياسة العليا العامة التي يجب على الرؤساء اتباعها لحسن سير العمل والنظام والعبادة في كل الأديرة • ثم يعلن الرئيس العام أسماء الرؤساء المعينين الجدد ، كما يعلن التنقلات بين رؤساء الأديرة • وأخيرا في جلسة ختامية يحضرها جميع الرهبان تسرى الصلاة عامة • وفي مشهد مؤثر يعلنون مغفرة الخطايا والصفح العام عن المذنبين ويبارك الرئيس الأعلى جميع الحاضرين •

ولا يفوتنا ان ننوه بعناية الأبا باخوم بالمرضى عناية شاملة كاملة روحيا وجسديا • كما كان يرحب ترحيبا كبيرا بالضيوف وكانوا يمثلون سيلا متدفقا • وكان في كل دير بيت للضيافة ملاصق لمدخل الدير وداخل جدرانه ، لكنه لايتصل برحبات الدير ولا بقلالي الرهبان •

وخلاصة القول أن حياة الشركة التي أسسها الأبا باخوم كانت فتحا جديدا في تاريخ الرهبانية ومظهرا رائعا في زمن كانت الفوضى ضاربة أطنابها في أرجاء الامبراطورية الرومانية التي أخذت هيبتها في الزوال والتدهور ازاء هجمات القبائل المتبربرة في القرن الخامس الميلادي•

اتســـاع الديــرية الباخومـيـــة

كان من آثار حياة الشركة التى أسسها الابا باخوم أن تناظرت عليه أعداد ضخمة من محبى الحياة النسكية حتى ضاق الدير الأول الذى أسسه فى طابنسين ، ولذا اخذ فى تأسيس أديرة أخرى فى مناطق قنا وطيبة . فبنى ديرا فى ببــو ، أبنــو ⲫⲃⲱⲟⲩ وهى فاو الحالية) وبانوبوليس (هى أخميم ⲭⲙⲓⲛ) وتابنتسمان (ⲧⲥⲉⲛⲏ شمال أخميم) وباخنوم ولاتوبوليس (إسنا) كما بنى أديرة أخرى فى منكوزيس وثيبيو . كما أسس ديرا للعذارى كانت نواته الأولى مريم شقيقة الأبا باخوم نفسه ويخبرنا بلاديوس بأن أديرة باخوم ضمت ثلاثة آلاف أثناء حياته وسبعة آلاف سنة ٤٢٠م وهى السنة التى أتم فيها بلاديوس كتابه " بستان الرهبان " أما يوحنا كاسيان الذى زار مناطق الرهبان حوالى نفس هذا التاريخ فيقدر عددهم بنحو خمسة آلاف راهب باخومى وذكر القديس جيروم الذى كتب فى سنة ٤٠٤ م أن عدد الرهبان الباخوميين بلغوا أنئذ خمسين الف راهب . وهذا العدد وان كان مبالغا فيه لكنه يعطينا فكرة عن الازدياد الخطر فى اعداد رهبان مؤسسات باخوم .

خاتمة حياتـــه : أخيرا حانت ساعة مغيب شمس هذا القائد العظيم والراعى الصالح بعد حياة حافلة بجلائل الاعمال وذلك عند ما تفشى وباء الطاعون فى مصر سنة ٣٤٨م ولحق الأديرة الباخومية وحصد كثيرا من الأخوة . فى هذه الأثناء كان ينتقل باخوميوس بين تلاميذه من الصابين لتمريضهم ودفن الموتى منهم وتشديد إيمان الجميع ، غير عابئ بما يحيق به من خطر . وما أن عبر عيد الصعود فى تلك السنة الا وبدأ يشعر بأعراض المرض فجمع أبناءه وأوصاهم أن يحافظوا على النظام الذى وضعه . ولهم أن ينتخبوا من يشاءون خلفا له ولكن كمجرد اقتراح يقترح ان يخلفه بترنيوس .. Petronious . أخيرا رقد واستراح فى الرب وله من العمر سبعة وخمسين عاما . وبعد دفنه فى كان معين فى الجبل نقل جثته واحد من تلاميذه سرا الى بقعة غير معروفة تنفيذا لوصيته حتى لا يكون جسده موضع تبجيل وتقديس واكـــرام .

قوانين باخوميوس فى الغرب

كتبت قوانين باخوميوس أولا باللغة القبطية ، ثم ترجمت الى اليونانية لخدمة الرهبان الوافدين من خارج مصر والذين كانوا يتكلمون اليونانية • وقد ترجم القديس جيروم (ايرونيموس) ناسك بيت لحم تلك القوانين الى اللاتينية عن اليونانية فى سنة ٤٠٤ م • وقد أتاحت ترجمة قوانين باخوميوس الى اليونانية واللاتينية انتشارها فى الغرب كما كان لها تأثير واسع النطاق • فقد استعان بها القديس باسيليوس الكبير فى وضع قوانينه النسكية • وكثير من قوانين الرهبنة التى ظهرت فى الغرب تستمد جوهرها من قوانين باخوميوس • ومن أمثلتها قوانين بندكت مؤسس الرهبنة فى الغرب الذى أستعار معظم فقراتها من قوانين باخوميوس •

أنبا شنودة رئيس المتوحدين

ولد سنة ٣٣٣ م بقرية شنلالة شمال غربي أخميم من والدين تقيين موسرين ، ربياه في خوف الله ، وقد أظهر منذ طفولته نجابة روحية فائقة . كان والده يرسله مع رعاة غنمه كنوع من التدريب على العمل ، ولوحظ أنه كان ينفرد للصلاة بجوار بئر في وقت الغروب حتى وقت متأخر من الليل ، وهو دون العاشرة من عمره . وهنا ظهرت تقوى والديه . اذ لما عاينا ميله للتقوى ، صحبه الى خاله وكان راهبا يدعى بيجول الذي تنبأ له بمستقبله الروحي ومن وقتها لازم الصبي شنودة خاله الراهب منذ تلك الفترة المبكرة من حياته . وقد شهد أحد شيوخ الرهبان أنه كان يرى أصابعه تلمع لمعان الشموع المضاءة حين كان يرفع يده بالصلاة .

أظهر شنودة نشاطا روحيا فائقا في حياته الرهبانية وألبسه خاله الاسكيم المقدس بعد أن أعلن له ذلك في رؤيا وتنبأ أنه سيكون أبا لجماعة كبيرة مباركة . وخلال هذه السنوات عاش في الدير الأحمر المجاور لسوهاج حيث كان بيجول أبا لرهبانه . انفرد شنودة في مغارة في الصحراء بعيدا عن الدير ، وقضى فترة طويلة متوحدا في صلوات وتأملات دون أن يهمل العمل اليدوي . وبعد خمس سنوات قضاها في المغارة عاد الى الدير ، وكان الرهبان ينظرون اليه نظرة إكبار . وقيل أنه في أحد الأيام سمع الرهبان الشيوخ صوتا يقول " لقد أصبح شنودة أرشمندريتا أي رئيسا للمتوحدين " . ولا شك أن غيرة شنودة وقداسته والاستعلانات الالهية التي منحت له كانت سببا في اجتذاب عدد كبير من الراغبين في حياة النسك . فلما انتقل بيجول الى السماء سنة ٣٨٣ م كان طبيعيا أن ينتخب الآباء شنودة خلفا له رئيسا للدير .

شخصيته : عمّر الأنبا شنودة حتى بلغ الثامن عشر بعد المائة قضى منها ستة وستين عاما رئيسا لبضعة أديرة بعضها للرهبان وبعضها للراهبات . أسس مركز أديرة في مواجهة المدينة الأثرية بانوبوليس Panopolis (أخميم الحالية) من جهة الغرب حيث يقوم الآن الدير الأبيض . ومع هذا العمر الطويل منحه الله صحة وحيوية . كان الأنبا

شنودة رجلا شديد المراس وأشد عنفا من الأنبا باخوم • كان قبطيا صميما ومن أئمة العامليـــن على تنقية اللغة القبطية وآدابها من التأثيرات البيزنطية حتى أن الأستاذ " وليـــــم رول " فى كتابه " موجز تاريخ القبط " يقول عنه أنه اعظم كتاب الأدب القبطى • ويصفه بأنه أعجـــب شخصية أنجبها القبط ، بل هو فى الواقع المؤسس الحقيقى للكنيسة القبطية •

عاش الأنبا شنودة فى عصر يتأجج بنيران الأحداث والانفعالات • وفيه أندحرت الوثنية نهائيا بعد أن حاول الامبراطور الجاحد يوليانوس عبثا أن يعيدها الى الوجود • وفـــى سنة ٣٩١م فى بطريركية ثاوفيلس ٢٣ دمر السرابيوم فى الاسكندرية وكان مقرا ورمزا للنشـاط الوثنى السياسى فى مصر • وفى حياته عقد مجمعان مسكونيان فى القسطنطينية وأفســـس سنة ٣٨١م وسنة ٤٣١م ، والمجمع الذى عقد فى أفسس سنة ٤٤٩م برياسة البابا ديسقـوروس ومجمع خلقيدونية سنة ٤٥١م الذى فيه حدث الانشقاق الكبير فى العالم المسيحى • بل أنـه صحب البابا كيرلس الكبير الى المجمع المسكونى الثالث فى أفسس • ومع أنه كان شغوفــــا بالعزلة الا أنه شاطر العالم حياته ، فكان يرقب الأحداث والتقلبات السياسية لأنها كانـت تنعكس على حياة مواطنيه • كان يستمع الى أنينهم والمظالم التى ينزلها بهم المستعمــرون الدخلاء فسعى على تحريرهم • أخذ يحرر نفوسهم ايمانيا بالعظات والتعاليم ، وقرن تعليمـه بالعمل حينما كان يطعم الجائع ويكسو العريان ويداوى المريض ويأوى الغريب وفوق كل هـذا كان يذهب بنفسه مع المظلوم الى ساحة القضاء ليدافع عنه شخصيا • فان لم ينجح فى انتزاع العدالة توجه بالشكوى الى الامبراطور وكان لا يهدأ حتى ينال المظلوم حقه • وهكذا عـلم الاقباط كيف لا يستكينون للمظالم والظالمين طالما هناك فرصة لاستخلاص حقوقهم المسلوبـة بهذا الوعى استطاعوا ان يتخذوا وقفتهم التاريخية الحاسمة من مجمع خلقيدونية حيث رفضـوا أن يحنوا رؤوسهم لأوامر الامبراطور الهرطوقى مرقيان ، ويتقبلوا مذهبه الخلقيدونى الـذى يخالف عقيدتهم الأرثوذكسية • ولاشك أن هذه الحركة التى قام بها أبا شنودة أيقظـت الوعى المصرى لتحقيق استقلال مصر من الناحية الدينية عن القيسطنطينية • تلك الحركــة التى أخذت فى الاضطراد حتى شملت الحياة الاجتماعية المصرية ، وتطورت فى النهايــة

الى درجة السمو الى الاستقلال السياسى عن الدولة البيزنطية • ومن ذلك يتضح أن شنودة يمكن أعتباره — الى حد ما — من بناة أول مشروع استقلالى لهذا الوطن منذ الاحتلال الفارسى على يد قمبيز سنة ٥٢٥ ق•م وعداء شنودة لكل ماهو بيزنطى يفسر لنا السر فى أن أديرتــه ظلت قبطية خالصة على عكس الأديرة الباخومية التى كان لها طابعا دوليا يؤمها المصــرى وغير المصرى • وهكذا كان شنودة فى كل الأقاليم المحيطة بديره زعيما يتطلعون الى معونتــه وقديسا يلتمسون بركته وليس أدل على ذلك من الحادث الآتى :

أغارت قبائل البلبات بعض القرى التى فى الصعيد فى منطقة أخميم فقتلوا ونهبوا وسلبوا ثم اقتادوا من بقى من أهالى تلك القرى الى الأسر• وما أن سمع الأنبا شنودة بما حــدث حتى سارع الى مقابلة رؤساء تلك القبائل وقال لهم " احتفظوا بكل الأسلاب والغنائم وأعطونى كل الأسرى " فراقتهم كلماته وسلموه الناس الذين أسروهم فأخذهم فرحا وسار أمامهم وهــم يتبعونه فى نوح واستبشار واجتاز بهم النيل الى أن وصلوا الى ديره الأبيض حيث استبقاهـم ثلاثة شهور كاملة • وحالما وصل بهذه الجماعات العديدة والنساء والأطفال نادى علــى رهبانه ووكل لكل جماعة منهم عملا يؤدونه فعمل سبعة رهبان أطباء الجرحى من بين الجمــوع ووضعوهم فى المكان المخصص للمرضى بالدير وسهروا على رعايتهم • وفى الوقت عينه اهتــم غيرهم من الرهبان بالشيوخ والأطفال • وفى خلال الثلاثة الشهور التى قضاها هــؤلاء اللاجئون فى الدير مات منهم أربعة وتسعون شخصا ودفنوا فى الدير بينما ولد لهم اثنــان وخمسون طفلا وقد استنفذوا فى تلك المدة ٥٨ ألف أردب من القمح المخزون عدا العــدس والبقول ••• الخ •

ولم يكن الأبا شنودة أبا لجمهرة من الرهبان فحسب بل كان أبا لألف وثمانمائة راهبــة أيضا • وقد كتب لهؤلاء الراهبات رسائل عديدة بقصد التعليم والارشاد والتثبيت علــى الايمان القويم • ومازال عدد كبير من ميامره وعظاته بين أيدينا ينطق بعلو كعبه فى الأدب القبطى وعمقه فى الفكر والروحيات • أخيرا بعد شيخوخة صالحة انتقل الى كنيسة الأبكــار فى السابع من أبيب سنة ٤٥١ م •

أنظمـــة الرهبانيـــة

ومع قلة الوثائق والمصادر التى تمدنا بمعلومات عن حياة الأبا شنودة وأنظمته وأديرتـــه فاننا نستطيع أن نلخص أنظمته الرهبانية فيما يلى :

(١) نظام الرهبنـــة : أفرد الأبا شنودة مساكن خاصة خارج أسوار الدير واستحدث شنودة تعهدا يكتبه كل من تثبت صلاحيته للرهبنة قبل رسامته راهبا باتباع قوانين الديـــر والرهبنة أما نص هذا التعهد فكان :

" أتعهد أمام الله فى هذا المكان المقدس ، وتشهد على الكلمات التى تخرج من فمى أننى لن أدنس جسدى بأية وسيلة ولن أسرق ولسن أشهد زورا ولن أتكلم بغشا ولن أتأتى بطريقة أعمـــال النفس فى الخفاء . فاذا نقضت هذا العهد فلا أشاهد ملكوت السموات دون أن أدخلهـــا وليدمر الله نفسى وجسدى فى نار جهنم اذا نقضت العهد الذى أخذته على نفســـــى فى حضرته " . وأهمية هذا العهد من الناحية الديرية أنه أول مظهر للنذور الرهبانيـــة التى شاع أمرها فى أديرة العالم فيما بعد .

(٢) العبـــــادة : كان لها المكان الاول فى ديرية شنودة ويتضح ذلك ممـــا جاء بقوانين الدير " أن العمل الذى من أجله جاء كل واحد الى هذا المكان هو الكتـــاب المقدس والكتب التى وضعت لنا ... اذا كنت تأتى الى هذا المكان لتعمل فى حرفة ولا تعمل لأجل خلاص نسك فأمامك المكان الذى أتيت منه وعُدّ اليه لتمارس صناعتك " وقد نظمهـــا الأنبا شنودة وجعلها على أربعة أنواع :

(أ) صلاة قصيرة ترددها كل مجموعة من الرهبان قبل البدء فى العمل المنوط بها .

(ب) صلوات خاصة تشمل المزامير والتسابيح وغيرها . وتركت الحرية لكل راهب فيمـــا يقول وفى المواعيد التى يختارها .

(جـ) الصلاة الجماعية ، وقد خصص لها أربعة مواعيد يوميا : صباحا وظهرا وعند الغروب وليلا . وكان الرهبان يلزمون الصمت التام في ذهابهم للاشتراك فيها وفي عودتهم الى قلاليهم بعد انتهائها .

(د) القداس الالهي وسمح للشعب أن يحضره وكان يفتح لهم أبواب الدير من مساء السبت . وعقب الانتهاء من القداس الالهي كان يعد لهم موائد لاطعامهم . كان الرهبان يعدونها خصيصا وكان الابا شنودة ينتهز فرصة وجود آلاف الناس داخل أديرته فيعظهم ويرشدهم الى الايمان الارثوذكسي

(٣) <u>التعليم</u> : لعل الابا شنودة لم يهتم بأمرٍ ما قدر اهتمامه بتعليم تلاميذه وتثقيفهم . وهكذا غدا رهبانه أكثر طبقات المصريين نصيبا من ذلك ، ولشدة ايمانه واهتمامه به وسع نطاقه حتى شمل أهالي المنطقة المجاورة لديره . وكان يهدف الى القضاء على الخرافات الايحائية والتعاويذ السحرية . كما اهتم بهم من الناحية الصحية العلاجية . ويقول عنه الأستاذ ورل Worrel الذي ذكرناه آنفا " وكان كل مجهود شنودة ونشاطه الاداري موجها نحو محاربة الوثنيين واقتلاع جذور خرافاتها من الكنيسة مثل السحر والتعاويذ والدجل الطبي والبدع الاجتماعية المختلفة من الأعياد الدينية .

(٤) <u>العمل اليدوى</u> : كان العمل اليدوي اجباريا على رهبان الدير الأبيض وفقا للأنظمة الباخومية . وكان يراعى أن يعمل كل في الحرفة التي كان يمارسها قبل رهبنته وكان أرباب كل حرفة يعملون جميعا تحت رقابة رئيس مشترك واحد . أما الذين لم يكن لهم خبرة سابقة بعمل معين فكانوا يضفرون الخوص ويفتلون الحبال من الليف . وحتى الأنبا شنودة نفسه كان يقوم بهذا العمل نفسه اثناء خلوته ، ولم يكتف بتعليم رهبانه الحرف بل أضاف اليها فن الكتابة ، فألحق بالدير الأبيض مدرستين لتعليم الموهوبين من الرهبان فن نساخة الكتب وزخرفتها " مدرسة تحسين الخطوط " .

(٥) الطعـــام والمــــلابس : كانت على نمط الأديرة الباخومية تقريبا •

(٦) حياة العزلـــــــة : لم يكن نظام الشركة اجباريا فى أديرة شنودة بل أنــــه شجع حياة العزلة • وكان المتوحدون يأتون الى الدير من وقت الى آخر ليأخذوا لوازمهــم من الخبز والماء أو ليحضروا الاجتماعات السنوية — وهكذا جمع الأبا شنودة بين النظامـــين الأنطونى والباخومى • ولم يكن هذا اللون من الجمع بين الحياتين قاصرا على بعــــض رهبانه بل لقد مارسه هو نفسه اذ كان يقضى بعض الوقت فى الدير والبعض الآخر فـــى مغارة منفردة •

(٧) الادارة : كان لمجموعة أديرة الأبا شنودة رئيس أعلى لقّب منذ القرن الخامــــس بالأرشمندريت • وكان هو ووكيله مسئولين عن ادارة الدير الرئيسى والاديرة الفرعية التابعة له • وكان لكل دير فرعى مشرف مسئول عن تنظيم الأعمال اليدوية فيه • أما القيادة الروحية فكانت للرئيس الأعلى • ومن ثم كان يعقد أربعة اجتماعات سنويا يحضرها جميع الرهبـــان حتى المتوحــــــــدون •

وكان رهبان الدير الأبيض هم وحدهم المتعلمون بين طبقات الفلاحين ورجــــــال الدين أنفسهم فقد كانوا جميعا يعرفون القراءة كما كان البعض يعرف الكتابة • وكان بينهـم المزارعون المهرة والبناؤون والأطباء ••• الخ •

تنسك ورهبنة العذارى

بدأ تنسك العذارى ورهبنتهن منذ وقت مبكر فى تاريخ الكنيسة • وعلى نحو مامرت رهبنة الرجال بعدة مراحل حتى وصلت الى حياة الشركة الرهبانية ، كذلك كان الأمر بالنسبة للعذارى •

(١) المرحلة الأولى لتنسك العذارى كانت داخل البيوت ، كن يتعبدن فى بيوتهن محافظات على طهارتهن وبتوليتهن مع المداومة على العبادة وقراءة الكتب المقدسة وكمثال لهذه المرحلة ، بنات فيلبس المبشر الأربعة العذارى فى مدينة قيصرية اللائى كن يتنبأن (أع ٢١ : ٩) • وحينما يقول بولس فى (١ كو ٧ : ٢٥) " وأما العذارى فليس عندى أمر من الرب فيهن " فان ذلك يدل على وجود نظام " العذارى " كما يفهم من منطوق الآية • ومعنى هذا أن هذه المرحلة بدأت مع بداية الكنيسة وفى عصرها الرسولى •

(٢) المرحلة الثانية هى المرحلة التى ظهرت فيها " بيوت العذارى " ويبدو أن أمثال هذه البيوت ظهرت منذ وقت مبكر ، وتحت اشراف الكنيسة • ويبدو أيضا أن هذه البيوت كانت تضم الى جانب العذارى الأرامل اللائى نذرن عدم الزواج بعد ترملهن (أنظر ١ تى ٥ : ٣ — ١٠) فى أحد هذه البيوت أودع ديمة ريوس الكرام البطريرك الاسكندرى ١٢ (١٨٨ — ٢٣٠ م) زوجته الذى عاش معها مدة ٤٨ سنة فى بتولية كاملة لمنع العثرة بين الشعب • وفى بيت منها أودع القديس آمون أبو جبل نتريا زوجته بعد أن عاشا معا بتوليين ، لما عزم على الانطلاق الى البرية • وهكذا فعل الأنبا أنطونيوس الكبير بأخته ، التى صارت بعد ذلك مشرفة على عدد كبير من العذارى •

(٣) المرحلة الثالثة التى تكونت فيها أديرة للعذارى • وأول من أسس ديرا للعذارى هو القديس باخوميوس أب الشركة الذى أسس لأخته مريم ديرا فى طبانسين ، بلغ عدد

راهباته ٤٠٠ راهبة ، ويقال أنه اتبعه بدير آخر أسسه بجهة فحنة قرب أدفو • وقد وضع باخوميوس لهذين الديرين قانونا سارت عليه العذارى • وقد تبع ذلك انتشار أديرة العذارى بأنحاء مختلفة بالبلاد ومنها الى خارج مصر •

في صعيد مصر : يذكر بلاديوس كاتب بستان الرهبان الذى زار مصر أواخر القرن الرابع أنه زار ديرا للراهبات فى أتريب بجوار " اخميم ، وكان يشرف على ادارته أحد الرهبان الشيوخ ، الذى كان يقيم فى حجرة عالية لا تتصل بالراهبات من داخل الدير ، بل كان بابها يفتح الى الخارج • وذكر اميلينو Amélineau فى مقدمة كتابه " مؤلفات شنودة Les Oeuvres de Shenoudi " أن القديس باخوميوس انشأ ثلاثة أديرة للعذارى فى منطقة أخميم وحدها • وفى هذه المنطقة انشأ انبا شنودة بعد ذلك مركزا لرهبنة العذارى كان يضم ١٨٠٠ راهبة •

وفى منطقة أنطنوى (الشيخ عبادة)

وُجد تجمّع كبير للراهبات تحت اشراف الام تاليس Talis التى قضت ثمانين عاما فى النسك • وفى منطقة البهنسا تجمع نحو عشرين الف راهبة تحت تدبير أسقف • وفى قرية ريفا بأقليم ليكوبولس (أسيوط) وُجد دير للراهبات العذارى ، وفى بلدة فاو (مركز قنا) أنشأ تادرس تلميذ باخوميوس ديرا للعذارى ، وكان فى قفط دير للراهبات على اسم الشهيد مارجرجس • كما وجدت أديرة للعذارى فى أقاليم الفيوم والجيزة • •

فى الوجه البحرى : وجد دير على اسم الشهيدة دميانة بجوارى بلقاس ، حيث تنسكت الشهيدة دميانة ومعها أربعون من العذارى استشهدن جميعا فى زمن دقلديانوس • ويذكر أبو المكارم أنه فى القرن الحادى عشر كان ببلدة دمروه مركز المحلة الكبرى دير للراهبات كانت رئيسته تدعى الأم قمرية • كما وجد دير للراهبات فى سنباط (مركز زفتى) فى نفس تلك الفترة • ووجد دير للراهبات قرب منوف على اسم الأنبا أرميوس كان فيه ٣٠٠ راهبة •

في القاهـــرة : يذكر المؤرخ المقريزي أنه في زمانه أي في القرن الخامس عشر كان بالقاهرة سبعة أديرة للراهبات (٢ في حارة زويلة + ١ حارة الروم + دير المعلّقة وكان أشهــر ديارات الراهبات + دير القديسة بربارة + دير مارجرجس بمصر القديمة + دير مارمينــا بمصر القديمة) .

في الاسكندريــة : وجدت أديرة كثيرة للراهبات بضواحي الاسكندرية خاصة في غربهـــا — دون التدخل في الصحراء — ونظرا لعدم امكان اقامة الراهبات العذارى في الـــبرارى والجبال بل في مناطق قريبة من المدن . وقد اشار الى ذلك ساويرس بن المقفع في كتابــه تاريخ البطاركة في سيرة الأنبا تيموثاوس البطريرك ٣٢ (٥١٧ — ٥٣٥ م) وتاريخ البابـــا بطرس ٣٤ (٥٦٧ — ٥٦٩ م) وكذا في تاريخ البطريرك اندرونيكوس ٣٧ (٦١٦—٦٢٢ م) وهناك دير للعذارى تلك شهرة كبيرة أسسته أنستاسية عرف باسم دير الزجاج . ويقع فـــى موقع الدخيلة الآن . وقد عاشت القديسة انستاسية في هذا الدير في القرن السادس قبـل ان تنتقل الى برية شيهيت . وورد في سيرة القديسة تومايس المفيئة اشارة الى ديـــر للراهبات هو دير الاكتوكايانون (الثامنية عشر) لانه كان يبعد عن الاسكندرية ١٨ ميـــلا وموقعه لجوار بلدة العامرية . ويرجع الى القرن الخامس . وكذلك دير الايكوسايــــون (العشرين) لأنه كان يبعد ٢٠ ميلا عن الاسكندرية ويرجع أيضا للقرن الخامس .

راهبات عشن في البراري

حدث في العصور القديمة أن بعض العذارى ممن توفرت لديهن الشجاعة . تعبّدت في قلب الصحارى في كهوف ومغاير وشقوق الأرض . ومنهن من ارتدين ثياب الرجال والتحقن بأديرة الرهبان متنكرات بأسماء الرجال . ومن أمثلتهن الراهبة ليديا من تسالونيكى الـــتي تزينت بزي الرجال وزارت مكاريوس الاسكندري . وأمضت سنة كاملة في قلاية بمنطقة القلالـــى وكانت تقابله كأحد الرهبان مرة كل أسبوع . ومنهن أيضا الراهبة أبوليناريا ابنة الامبراطـــور

انتيموس الكبير التى رغبت فى حياة التنسك ترفضت الزواج ، ورحلت فى قافلة حج الى أورشليم ومنها الى الاسكندرية حيث لبست زى الراهبات ثم الى الاسقيط حيث سمت نفسها الراهب دوروثيئوس ، وكان ذلك فى حياة مكاريوس الكبير وظلت شخصيتها مخفية ولم يكتشف أمرها أنها عذراء الا عند تجهيزها للدفن بعد نياحتها . وبعض العذارى أوغلن فى حياة النسك وضروب التقشف فكان منهن الحبيسات ، ومنهن من وصلن الى مرتبة السياحة ، وعشن تائهات فى الجبال والبرارى ومن أمثلتهن مريم المصرية التى ساحت فى برية الأردن لمدة ٤٧ سنة لا ترى وجه انسان حتى التقى بها القس زوسيما الذى دوّن لنا سيرتها .

الأديرة الحاليــــــة :

ويوجد حاليا بالكنيسة القبطية ستة أديرة للعذارى هى :

دير العذراء ودير مارجرجس بحارة زويلة ، دير الأمير تادرس بحارة الروم ، دير مارجرجس ودير أبى سيفين بمصر القديمة ودير القديسة دميانة فى برارى بلقاس .

نماذج من الراهبــــــات الناسكــــات

القديسة اناستاسية المتوحدة بشيهيت

عذراء شريفة من القسطنطينية . كان لها مركز مرموق فى بلاط الامبراطور البيزنطــى جوستنيان (٥٢٧ – ٥٦٥ م) وزوجة الامبراطورة ثيئودورة . أعجب الامبراطور لجمالهـــا وذكائها وهام بحبها وأراد الزواج منها ، لكن زوجته كانت على قيد الحياة . واذ ضاقت اناستاسية ذرعا بمضايقات يوستنيان ، وكانت قد عزمت فى قلبها أن تكون عروسا للمسيح فقررت ترك القصر الامبراطورى ، بل ومدينة القسطنطينية كلها . رحلت خفية الى الاسكندرية . وعلى مقربة منها (وربما عند موضع الدخيلة الحالى) أسست ديرا ظلت تتعبد فيه . وكان هذا الدير يعرف باسم دير أناستاسية البطريقة أى الشريفة . وبعد وفاة الامبراطورة سنة ٥٤٨

جدّ الامبراطور فى البحث عن أنستاسية ... واذ أحست هى بذلك ابتكرت طريقة للهـرب تنكرت فى زى الرجال وتوجهت الى برية شيهيت وتباركت من أجساد التسعة والأربعين شهيدا شيوخ شيهيت ، وقابلت الأنبا دانيال قمص شيهيت وأعلمته بأمرها . أما هو فعيّن لهـا احدى المغارات فى البرية الداخلية فى جهة منعزلة ، وكان يرسل لها تلميذه كل اسبوع مرة يمدها باحتياجاتها من الزاد والماء . وظلت هكذا لمدة ٢٨ سنة لا يعلم أحد عن أمرها شيئا حتى تنيحت سنة ٥٧٦ بعد أن جاهدت جهاد الرجال من أجل الاحتفـاظ بطهارتها وحبها لعريسها السمائى .

القديسة ابولنيير : Apollinaire

عذراء شريفة من القسطنطينية كانت ابنة أحد أشراف المملكة فى عهد ثيودوسيـوس الثانى . عشقت حياة البتولية والوحدة . وظلت تلح على والدها المؤمن يوما بعد يوم حتى وافق على بقائها عذراء . رحلت الى أورشليم لزيارة الأماكن المقدسة . وهربت سرا الى قرب الاسكندرية لزيارة جسد الشهيد مارمينا بمريوط وتتبرك من جسده . وعند مستنقع قريب من ذلك الموضع خلعت ثيابها ولبست ثياب راهب كانت تحتفظ بها . وظلت تتعبد مختفية فى ذلك المكان . وقيل أنها كانت تقتات من ثمر شجرة نخيل فى الموضع . تسمت باسـم الراهب دوروتى وتركت المكان الى جبل نتريا ، وهناك تقابلت مع القديس مكاريوس الاسكندرى الذى اعطاها مغارة مهجورة على منحدرات جبل نتريا . وقد أظهرت فى حياتها نسكـا وتواضعا شديدا . كان لها أخت بها روح نجس شديد طالما عذّبها . أرسلها والدهـا من القسطنطينية الى شيوخ ورهبان البرية لكى يشفوها . فوقع اختيار الآباء على الراهب دوروتى لشدة تقواه وقداسته . وفعلا شفاها وعادت الى أبيها ثانية بالقسطنطينيـة لكن الشيطان عاودها ثانية وأتعبها . فاضطر والدها الى أن يرسل لآباء نتريا ليرسلوا الأب دوروتى الى القسطنطينية ليصلى عليها تشفى . وتحت الحاح الآباء قبل دوروتـى وسافر الى القسطنطينية . وهناك شفيت البنت نهائيا . وفى تلك الفرصة صار انكشـاف

أمرها وتعرّف عليها والداها • لكنهما كانا عند وعدهما فأطلقاها الى البرية ثانية حيث عاشت وأكملت جهادها الحسن • واذ أحست بدنو ساعة رحيلها من العالم ، استدعت الأنبا مكاريوس الاسكندرى وأعلمته بقرب انطلاقها من العالم وطلبت اليه أن يدفنوها كما هى دون أية مراسيم للدفن • وفعلا نفذت وصيتها • لكن الآب كشف أمرها للقديس مكاريوس ودفنت فى مغارتها التى طالما تعطرت بصلواتها •

" آثار الرهبنة المصرية فى العالم القديم والمعاصر "

ذكرنا فيما ذكرنا أن الرهبنة المسيحية ظهرت أول ماظهرت فى مصر ، وانتشرت فى الصحارى التى على جانبى وادى النيل شرقا وغربا ... وكذلك الديرية المسيحية عرفت أولا فى صعيد مصر الأعلى على يد الأبا باخوم ، وسرعان ما انتشرت أديرة الشركة فى القطر المصرى من أقصى الجنوب الى أقصى الشمال . وكان نتيجة ذلك أن ذاع عبير الآباء المصريين فى أرجاء العالم فاجتذب الى مصر جميع الذين أحسوا بشوق نحو الحياة النسكية فجاءوا الى وادى النيل ووفدوا الى الصحارى المصرية جماعات من أجناس مختلفة بعضهم تتلمذ لمدة سنوات على أيدى النساك المصريين ، وبعضهم تنقل بين مختلف التجمعات الرهبانية زائرا ودارسا وبعودة بعض هؤلاء الى اوطانهم نقلوا الرهبنة اليها ، وأسسوا مراكز رهبانية فى جهات مختلفة من أنحاء العالم .

والآن نستعرض الوسائل التى انتقلت بها الرهبنة المسيحية من مصر الى العالم الخارجى

(١) سيرة الأبا أنطونيوس : التى كتبها البابا أثناسيوس الرسولى فى منفاه فى مدينة تريف على الحدود بين فرنسا وبلجيكا فى الفترة من سنة ٣٣٦ ـ سنة ٣٣٨م . وهى أول أثر للرهبنة المسيحية فى الغرب . وكانت لفترة النفى/الثانى للبابا أثناسيوس فى روما (٣٤٠ ـ ٣٤٩م) أثر كبير فى المجتمع الأوربى ، ساعد على نشر المبادئ والتنظيمات الرهبانية والديرية كان يصحبه فى النفى الثانى راهبان قبطيان من رهبان وادى النطرون هما أمونيوس وايسيذوروس وعن طريقهم عرفت أخبار الرهبنة فى مصر . لقد أقام أثناسيوس ومن معه فى منزل أرملة مسيحية اسمها مارسيللا وكان ظهورهم فى روما موضع اعجاب وباعثا على تأسيس شركات روحية . وكانت أحاديثه عن العذارى والأرامل المصريات دافعا الى حياة الرهبانية النسائية فى غربى أوربا وكانت مارسيللا هى نواة هذه الحياة الجديدة .

(٢) النساك والرحالة الذين وفدوا الى مصر فى القرن الرابع ، وزاروها أو اقاموا فيها اقامات متفاوتة ، ونقلوا الى بلادهم نماذج الحياة الرهبانية والديرية التى رأوها بأنفسهم فى مصر ، سواء بأحاديثهم وسلوكهم الرهبانى أو بكتاباتهم . ومن أمثلة هؤلاء :

أ — بلاديوس الذى جاء الى مصر مرتين أمضى خلالهما عدة سنوات تنقّل فيها فى طول البلاد وعرضها ، وزار تجمعات الرهبان وأديرتهم وأخيرا كتب كتابه بستان الرهبان حوالى سنة ٤٢٠ م ..

ب — يوحنا كاسيان الذى زار صحراء نتريا والاسقيط وبعض مناسك الوجه البحرى ومؤسسات باخوم بالصعيد الأعلى ، وقضى عدة سنوات متنقلا بين الآباء النساك مستمعا ومدونا أقوالهم وخبراتهم ، وبعد ذلك كتب كتابيه المعاهد Institutes والمقابلات Conferences فى العشرينات من القرن الخامس فى مرسيليا .

جـ — كتاب تاريخ الرهبان المنسوب للمؤرخ الكنسى روفينوس الأكويلى الذى كتبه كاتب مجهول حوالى سنة ٤٠٠ م يصف رحلة الى مصر تمت بين سنتى ٣٩٤ ، ٣٩٥ وانتشر انتشارا واسعا بعد أن ترجمه روفينوس الى اللاتينية .

د — القديس ايرونيموس (جيروم) الذى زار مصر سنة ٣٨٥ م بصحبة الراهبة الرومانية بولا Paula وقد زار وادى النطرون وقام بنقل ما عرفه عن أنظمة باخوميوس الديرية الى اللغة اللاتينية حوالى سنة ٤٠٤ م كما كتب قانونا للراهبات بعث به الى الراهبة مارسيللا فى روما حيث كان بيتها قد امتلأ بالعذارى هذا بالاضافة الى كتاباته الاخرى عن النساك المصريين .

هـ — وممن وفدوا الى مصر أيضا وكان لهم نصيب فى نشر الأفكار النسكية والحياة الرهبانية والديرية فى الخارج باسيليوس الكبير وغريغوريوس أسقف نيصص وغريغوريوس العجايبى ويوحنا ذهبى الفم وكذلك أوسابيوس أسقف فرسيل .. Vercelli الذى جمع بعض الاكليريكيين التابعين له وعاشوا حياة نسكية جماعية وذلك بعد أن شاهد الرهبنة فى مهدها بمصر

حيث قضى بضع سنين منفيا فيها وكذلك ايلارى أسقف بواتييه الذى نفى الى أسوان دفاعا عن الايمان الأرثوذكسى من هجمات الأريوسية وشاهد فى الصعيد الأعلى مؤسسات باخوم ونظامه الديرى .

(٣) الرهبان المصريون : الذين أسسوا حياة رهبانية خارج مصر ، سواء بذواتهم أو عن طريق الذين وفدوا اليهم من خارج مصر وتتلمذوا على أيديهم ، ثم عادوا الى بلادهم وأسسوا فيها حياة رهبانية أو ديرية . وقد تأسست حياة رهبانية خارج مصر على النحو الآتى :

أولا : فى الشرق

(أ) فى فلسطين وبرارى الأردن وسوريا : وقد تأسست على يد ايلاريون الغزى أحد مواطنى غزة (٢٩١ ـ ٣٧١ م) من أبوين وثنيين ووفد الى مصر ودرس الفلسفة بمدرسة الاسكندرية الشهيرة . وفى الاسكندرية اعتنق المسيحية وتعمد وأظهر زهدا فى العالم . وسمع عن الأنبا أنطونيوس الكبير فذهب اليه وتتلمذ على يديه بعض الوقت . وفعل نفس الشيء مع الأنبا باخوميوس أب الشركة بعد أن سمع عنه وقيل أنه مكث عنده نحو سنتين عاد بعدها الى برارى غزة حيث أسس حياة رهبانية على النمط المصرى . كما استعان فى ذلك ببعض الرهبان المصريين . ومن غزة انتشرت فى برارى الأردن ، وفى سوريا خاصة المناطق الصحراوية المتاخمة لمدينة أنطاكية .

(ب) فى مقاطعات آسيا الصغرى : وقد وصلت الرهبنة أساسا فى أقاليم بنطس وكبادوكية على يد ستاتيوس Eustathius الذى ولد لسنة ٣٠٠ م وكان أبوه أسقف مدينة سبسطية . وقد درس يوستاتيوس فى مصر على يد آريوس . وقد تحمس للحياة النسكية كما عرفها فى مصر وتبعه تلاميذ كثيرون . ويذكر سوزومين المؤرخ الكنسى أنه أسس رهبانية جماعية فى أرمينيا وبفلاجونيا Paphlagonia وبنطس . لكن المؤسس الحقيقى للرهبنة فى كل آسيا الصغرى هو باسيليوس الكبير (٣٢٩ ـ ٣٧٩) ، الذى بعد أن أتم دراسته فى

القسطنطينية وأثينا عاد الى قيصرية سنة ٣٥٦ • وبواسطة نصائح أخته ماكريتا قرر أن يحيا حياة النسك • ولهذا سافر الى مصر وفلسطين وسوريا وما بين النهرين (العراق) فأخذته الدهشة مما رأى من ضروب النسك من عمالقة النسك فيها • وعاد باسيليوس الى موطنه سنة ٣٥٨ وبدأ حياته النسكية متأثرا بحياة باخوميوس وأنظمته وأقام فى احدى بقاع البنطس – شمال آسيا الصغرى – تسمى ايبورا على نهر الأيرس تمتاز بجمالها الطبيعى الخلاب وقد وضع قوانينا رهبانية وان كانت لاتقارن بقوانين باخوميوس ، لأنه يغلب عليها طابع النصح التقوى • ومهما يكن من أمر فان أثر باسيليوس من الناحية النسكية كان كبيرا ودائما فى كل الأديرة فى الدولة البيزنطية وفى روسيا ، حتى أنها تنظر اليه كالأب الكبير لرهبنتها • وقد ترجم روفينوس قوانين باسيليوس من اليونانية الى اللاتينية •

(جـ) فى العراق : وقد تأسست الرهبنة فى شمالها على يد الراهب القبطى مار أوجين St. Augin الذى ترهب فى أحد أديرة باخوميوس بالصعيد • رحل اليها ومعه نحو سبعين راهبا من مصر الى اعالى العراق Mesoptamia وهناك أسسوا أديرة الموصل وطور عبدين ونصيبين • كما أسسوا جماعات رهبانية فى شمالى بلاد العرب وأرمينيا وفارس •

(د) فى جزيرة قبرص : وقد أسس فيها ابيفانيوس – الذى صار أسقفا على سلاميس فى قبرص وكان يمثل حماسا للحياة النسكية – عدة مؤسسات ديرية • كان ابيفانوس من مواليد قريتبيساندوك .. Besanduke بفلسطين • وفى وقت مبكر من شبابه رحل الى مصر وأمضى فترة ليست قصيرة بين رهبانها • ثم عاد الى مسقط رأسه وأسس ديرا بجوار بلدته • وكان على صلة بايلاريون الغزّى مؤسس الرهبنة فى ربوع فلسطين • كما أسس الرهبان الأقباط على أحد الجبال الشمالية بالجزيرة بالقرب من قرية بلاتان ديرا أطلقوا عليه اسم دير القديس مكاريوس • وكان للأقباط هناك أسقف يمتد اختصاصه فيشمل جزيرتى قبرص ورودس •

(هـ) في أثيوبيا : وصلتها الرهبنة عن طريق الرهبان المصريين الذين وفد الكثير منهم أواخر القرن الخامس ربما بعد قرارات مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١ . كان بين هؤلاء تسعة رهبان استقروا في أماكن متعددة من مقاطعة التجرى ، عرفوا بالقديسين التسعة . هؤلاء هم الذين أسسوا الأديرة وثبتوا العقيدة . ويقول الأثيوبيون أن هؤلاء الرهبان التسعة : " من تلاميذ الأنبا باخوم . ومهما يكن من أمر ، فان الرهبنة في أثيوبيا قامت على أيدي الرهبان الأقباط بحسب تعاليم أنطونيوس ومقاريوس وباخوميوس .

ثانيا : في الغرب

(أ) أسس يوحنا كسيان بعد عودته من صحارى مصر ديرا للرجال باسم القديس فيكتور (بقطر) وآخر للعذارى قرب مرسيليا حوالى سنة ٤١٠ م .

(ب) أما القديس ايرونيموس (جيروم) فيعتبر داعية الرهبنة في الدوائر الرومانية انقطع للحياة النسكية لمدة ٣ سنوات في صحراء خالكيس Chalcis بجوار انطاكية (٣٧٥ — ٣٧٧) . أتى الى روما وصار مساعدا لأسقفها داماسوس ... Damasus وهناك في روما كان له تأثير كبير على أفكار الناس من جهة الحياة النسكية ، خاصة بين عدد من سيدات روما الشريفات — أرامل وعذارى . ترك ايرونيموس روما سنة ٣٨٥ وتبعه عدد ممن عشقن الحياة النسكية كمرشد روحي لهن . وقد زار سوريا ومصر ثم استقر في بيت لحم . وقد أسست بولا Paula وابنتها يوستخيوم ديرا هناك . وبعد ذلك أسست ميلانيا الكبيرة ديرا قرب أورشليم . وقد ترجم ايرونيموس أنظمة وقوانين باخوميوس من اليونانية الى اللاتينية فساعد ذلك على انتشارها في غربي أوربا .

(جـ) وبانتشار الرهبنة في بلاد الغال (فرنسا) أخذت تنتشر في جهات أخرى من أوربا والجزر البريطانية .

+ هكذا بواسطة الزائرين والرحالة والرهبان والكتابات المختلفة عبر السنين تكوّن جسر ضخم نقل الى أوربا أنظمة الرهبانية والديرية المصرية . وما لبثت أن ظهرت آثارها على يد الراهب بندكت فى القرن السادس كما سيأتى فيما بعد .

(٢) على أنه يجب أن نشير الى نوع من الرهبنة ظهرت فى الغرب ، وهو ما يمكن أن نسميه أديرة الأسقفيات . فقد جمع بعض الأساقفة فى مراكز ايبارشيتهم بعض الرهبان عاشوا فى حياة شركة رهبانية . ومن أمثلة ذلك :

أ — أسس القديس امبروسيوس أسقف ميلان جماعة رهبانية معه فى ميلان .

ب — أسس القديس مرتينوس رهبنة فى ليجوجية .. Liguge قرب بواتييه Poitiers بفرنسا حوالى سنة ٣٦٢ وبعد أن أخذ من وحدته وصار أسقفا على تور Tours (٣٧٠ — ٣٧١) ، لم يترك الحياة النسكية التى سلكها قبلا ، بل جمع جماعة تحت ارشاده قرب مركز ايبارشيته فى مارموتييه Marmoutier (مرشوطير: دير الكواز) وكان لها تأثير فى كل الاقليم .

جـ — والقديس هونوراتس Honoratus أسس ديرا فى ليرنس ... Lérins على ساحل بروفنس بجنوبى فرنسا سنة ٤٠٠ م . أصبح مركزا كبيرا خرج منه مبشرون عديدون الى أقطار كثيرة . وهناك تتلمذ القديس باتريك شفيع ايرلندا ومؤسس كنيستها .

د — والقديس اوغسطينوس بعد عماده اعتنق الحياة الرهبانية بعد عودته الى مسقط رأسه فى تاجست سنة ٣٨٨ . وبعد أن صار أسقفا حوالى سنة ٣٩٥ حوّل مسكنه الى دير ووضع على كل الاكليريكيين واجبات رهبانية ، وعلى الأخص نذر الفقر الاختيارى .

ونستطيع القول أن جميع الأديرة الغربية كانت على مثال أديرة صحارى مصر وهذه العلاقة واضحة فى كنيسة أيرلندا . فعلى الرغم من بعد المسافة بين أيرلندا ومصر ، فان

الكنيسة هناك حافظت على علاقاتها مع الكنيسة القبطية . ويوجد فى المكتبة الأهلية بباريس مخطوطة عبارة عن دليل كان يستخدمونه الرهبان الأيرلنديون عند سفرهم الى مصر ومازال يوجد الى يومنا هذا ببلدة دزرت أليده Desert Ulideh (برية اليدة) قبور سبعة من الرهبان المصريين لاتزال تذكر أسماؤهم فى الصلاة بكنيسة تلك الجهة ومناسبة بلدة دزرت أليده نقول أنه على الرغم من عدم وجود صحارى بأيرلند الكن كل البلاد التى أقيمت فيها أديرة بأيرلندا سميت صحارى تملقا وتعبيرا عن الرهبان الأول القادمين من صحارى مصر .

الرهبنة القبطية فى أوج عظمتها :

بلغت الرهبنة القبطية أوج عظمتها فى القرنين الرابع والخامس الميلاديين . لكنها بدأت تضعف تدريجيا نتيجة الاضطرابات التى حلت بالبلاد المصرية بسبب الخلافات العقيدية المذهبية وضعف الأباطرة البيزنطيين الملكانيين على الكنيسة المصرية . أما الضربة القاصمة التى وجهت اليها فكانت الفتح العربى لمصر ودخول الاسلام وما ترتب عليه من ارتداد الكثيرين عن المسيحية نتيجة الضغوط التى تعرضوا لها من بعض حكام المسلمين فضلا عن حملات الاضطهادات التى وجهت ضد الكنيسة القبطية بما فيها أديرتها القابعة فى الصحارى .

حسبنا أن نذكر أن أعداد الرهبان والراهبات كانت بالآلاف وأن أعداد الأديرة كانت بالمئات . لقد شيد الأبا باخوم ثمانية أديرة كانت تضم عند نياحته سنة ٣٤٧ أعدادا ضخمة قيل انها بلغت نحو خمسين ألف راهب . وكان الدير الرئيسى قرب مدينة فبوو Phbôou وهى الآن فاو مركز دشنا محافظة قنا ، حيث أقام أبا باخوم أكثر سنى حياته الأخيرة كان يسكنه أعداد ضخمة قيل انها بلغت نحو سبعة عشر ألف راهب وبنى أبا باخوم ديرين للراهبات ، كان عدد الراهبات فيهما فى الجيل الخامس يتراوح بين خمسين وستين ألفا حسب رواية بلاديوس . وبالاضافة الى أعداد الرهبان الضخمة

التي كانت تحت قيادة الانبا باخوم ، فقد كانت هناك أعداد كبيرة أيضا تحت قيادة الانبا شنودة في منطقة أخميم ... والى جانب هذه الأعداد وتلك ، كانت هناك تجمعات كثيرة للرهبان والراهبات نذكر منها الآتي على سبيل المثال لا الحصر :

(أولا) في الوجه القبلي : كان هناك ٤٠٠٠ راهب بأسوان تحت قيادة القديس سمعان ، ونحو ٥٠٠ (خمسمائة) تحت قيادة القديس أبوللو صديق الانبا باخوم في بويط قرب أسيوط ، ١٢٠٠ (الف ومائتين) راهب قرب انطنوى Antinoe (الشيخ عبادة قرب ملوى) واثنا عشر ديرا وعشرة آلاف راهب ، وثمان عشرة الف راهبة في اكسرنيكس .. Oxyrinchos (البهنسا غربي بني مزار) وخمسة وثلاثون ديرا بأقليم الفيوم ظلت عامرة حتى القرن الثامن الميلادي .

(ثانيا) منطقة بابيلون (فسطاط مصر) : وهذه كانت غاصة بصوامع الرهبان والأديرة وجزء من هذه المنطقة هو المعروف بأسم القرافة ، وهي كلمة محرفة ومعناها النسّاج ، حيث كان الرهبان يقومون بنساخة المخطوطات .

(ثالثا) منطقة الاسكندرية والوجه البحري : كانت المنطقة الواقعة غربي الاسكندرية غاصة بالأديرة وتجمعات الرهبان النساك . كان بها في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي ٦٠٠ ستمائة ديرا عامرة . أضف الى هذا الأعداد الكبيرة التي كانت بجبل نتريا ومنطقة القلالي تحت قيادة القديس آمون والقديس مقاريوس الاسكندري ونحو ٥٠٠٠ (خمسة آلاف) راهب تحت قيادة الانبا مقاريوس الكبير في برية شيهيت بوادي النطرون ، ونحو ١٠٠٠٠ (عشرة آلاف) تحت قيادة القديس سرابيون في صحراء أرسينوى ، ونحو ٢٠٠٠ (الفين) راهب قرب مدينة كانوب (أبوقير) ، ونحو ٢٠٠٠ (الفين) راهب قرب بلوسيوم (تل الفرما شرقي بورسعيد) ... وهذا ، وقد ذكر المؤرخ المسلم المقريزي في القرن ١٥ في تاريخه للفتح العربي لمصر نقلا عن المؤرخين النصارى السابقين ، أن سبعين الف راهب خرجوا للقاء عمرو بن العاص من أديرة

وادى النطرون وهو فى طريق عودته الى مصر بعد فتح الاسكندرية سنة ٦٤١ م فسلمهم خطاب أمان للبابا البطريرك الأنبا بنيامين ٣٨ ٠ وربما كان هذا العدد مبالغا فيه ولكنه على أى حال يعطينا فكرة عن ضخامة أعداد الرهبان فى منطقة واحدة من مناطق تجمعات الرهبان ٠

اضمحلال الرهبنة فى مصر :

على أن حالة الازدهار التى حققتها الرهبنة من كافة الوجوه لم تدم طويلا ، اذ بدأت أسباب الضعف والاضمحلال تعمل فيها ابتداء من القرن السابع فصاعدا ٠ وكان ذلك يرجع الى عدة أسباب نلخصها فيما يلى :

(أ) توالى هجوم البربر البدو على الأديرة المنتشرة فى الصحارى ٠
(ب) المنازعات الطائفية والعقيدية ٠
(جـ) دخول العرب مصر ٠

وربما كان السببان أ ، ب ثانويين ، أما السبب الأساسى والقوى الذى حطم الرهبنة فهو بلا شك السبب الثالث ونعنى دخول العرب مصر ٠ وليس أدل على ذلك من النظر الى ما يأتى :

+ الخراب والدمار الهائل فى عهد عمرو بن العاص فى منطقتين عامرتين بالأديرة والكنائس وهما فسطاط مصر والأسكندرية وما حولهما ٠ اذ لما أستتبت لهم الأمور فى مصر هدمت كنائس وأديرة كثيرة فى بقعة مصرونة بالقرافة (نساخ الكتب) ، كانت عامرة بالصوامع والأديرة وكذلك فعلوا بالاسكندرية وماحولها من ديارات ٠ وكذلك خراب أديرة الصعيد على يد جيش مروان الثانى آخر خلفاء بنى أمية فى منتصف القرن الثامن الميلادى ٠

+ وحصى جميع الرهبان فى "كل الكور وادى هبيب (النطرون) وجبل جراء وأماكن أخرى كثيرة وذلك بأمر الاصبغ بن عبد العزيز والى مصر وفرض جزية دينارا على كل منهم وذلك فى عهد الكسندروس الثانى البطريرك ٤٣ (٧٠٥ — ٧٢٠ م) ٠

+ ومن أمثلة ذلك أيضا الخراب الذى شمل برية شيهيت على يد العرب ، وقــد أورد فى كتاب تاريخ البطاركة للانبا ساويرس بن المقفع أسقف الاشمونيين فى عهد البابـا مرقس الثالث البطريرك ٤٩ (٧٩٩ ــ ٨١٩ م) وصفا محزنا لهجوم العرب على أديـرة وادى النطرون ونهبهم لها وأسرهم للرهبان وهدمهم للكنائس والقلالى وطردهـم للرهبان منها حيث تفرقوا فى المدن والقرى واستشهد عدد كبير منهم . الأمر الـذى لاجله سأل هذا البطريرك الله أن ينقله من هذا العالم وألا يبقيه للحزن على هذه المواضع المقدسة فاستجاب الله لصلاته ونقله اليه .

+ وتخريب كثير من أديرة الصعيد فى عهد البطريرك شنودة الخامس والخمسيـن (٨٥٩ ــ ٨٨٠ م) اذ خربوا دير الانبا شنودة ودير الانبا صموئيل بالقلمون بأقليـم الفيوم ، فضلا عن قتل الرهبان وافساد الراهبات العذارى وقتلهن . وفى ذلك الوقـت خربت كنيسة العذراء بأتريب .

+ وما حدث من خراب لكثير من الكنائس فى عهد البابا يوأنس الخامس ٧٢ (١١٤٧ ــ ١١٦٦) فقد هدموا كنائس كثيرة فى ضواحى القاهرة ونهبوها ، ومنها كنيسة الحمـرا بحارة الروم وكنيسة الزهرى المشهورتين .

+ هذا ناهيك عن الخراب والاضطهاد الذى حل بأديرة مصر فى عهد الملك الناصـر محمد بن قلاون فى مدة رئاسة البطريركين الانبا يوأنس الثامن والتاسع (١٣٠٠ ــ ١٣٢٠ ، ١٣٢٠ ــ ١٣٢٧) الأمر الذى يجل عن الوصف حتى قيل أن القبط لم يروا مثله منذ عهـد دقلديانوس . وقد لايصدق المرأ ما أحدثه هذا الملك من دمار للأديرة والكنائس ، لـولا أن مؤرخا مسلما هو المقريزى دوّن هذه الأحداث . فيقول المقريزى عن قلاوون " وخرب من الديارات شيئا كثيرا ... وكانت هذه الخطوب الجليلة فى مدة يسيرة قلما يقع مثلهـا فى الأزمان المتطاولة ، هلك فيها من الأنفس وتلف فيها من الأموال وخرب من الأماكن مـا لايمكن وصفه لكثرتـه " .

(د) وثمة نقطتان أساسيتان نرى انهما من أسباب ضعف الرهبنة المسيحية فى مصـــر وهما الكهنوت والأوقـــاف ٠

فيما يختص بالكهنوت

الرهبنة مسلك تعبّدى وطريق اعتزال وانفراد فى الصحارى والبرارى والقفار ٠ ولهـــا مراتب ودرجات روحية مستقلة عن درجات الكهنوت ٠ ومن ذلك آباء الرهبنة الكبار ، ومـــن يسمونهم " بآباء الاسقيط ⲚⲈⲚⲒⲞϮ ⲚⲦⲈ ⲠⲒⲤⲬⲎⲦ من امثلة انطونيوس الكبير وبولا السائـــح وباخوميوس أب الشركة والأنبا بيشوى والأنبا شنودة رئيس المتوحدين وغيرهم ٠ وقد حرصـــوا طيلة حياتهم على عدم نوال أية درجة كهنوتية حفاظا على الرهبانية كطريق للتعبد الخالص وصونا لفكرتها الأصلية نقية من كل هدف للبلوغ الى مراتب الكهنوت ٠ ورتبة " قمص الدير " أو " قمص البرية " أو " الايغومينوس " فى الرهبنة لاتعنى بالضرورة أن صاحبهـــــــا يحمل درجة كهنوتية ، بل كانت فى بعض الأحيان تمنح له باعتباره مديرا للدير أو البريـــة أو رئيسا أو أبا له ٠ وقد يطلق عليه الأبّا ABBA أو " الأنبا " ، وكان لايحمل فـــى بعض الاحيان درجة كهنوتية ٠

لقد كان الكهنة الذين يقيمون القداسات فى أديرة الأنبا باخوم من كهنة البلاد المجاورة لأديرته ٠ وكان باخوميوس يحذر رهبانه من الرتب الكهنوتية ، ولقد اعتذر الأنبا باخوميوس مرارا عن قبول درجة الكهنوت عندما حاول الأنبا سرابيون أسقف دندرة وضع يده عليه لسيامته كاهنا ٠ وفى زيارة البابا أثناسيوس لأديرة باخوميوس فى صعيد مصر ، علـــم باخوميوس أن البابا يعتزم رسامته قسيسا فهرب ٠ فلما عرف البابا بهربه ، ترك له رسالـة شفوية لدى أولاده الرهبان يقول فيها " سلّموا لى على أبيكم وقولوا له بلسانى ، لقد هربت من المجد الباطل الذى كثيرا ما يثير الحسد فى النفوس ٠ فليمنحك الله سؤل قلبـــك لذلك أعدك بأننى لن أضع اليد عليك قسرا " ٠ ولقد استمر عدم رسامة كهنة منوين رهبان أديرة باخوميوس اكثر من مائة سنة ، جنا بعدها صوت تحذير باخوميوس من الرتب الكهنوتية

خاصة بعد أن احتضنت الكنيسة الرهبنة كنظام شعرت أنه ممكن الانتفاع به . وجدير بالذكر أن مجمع سرقسطة بأسبانيا الذي انعقد سنة ٣٨٠ م حرّم على الاكليروس أن يصيروا رهبانا حفاظا على المبدأ .

وفيما يختص بالاوقاف نقول :

ان حبس أوقاف وأموال طائلة على الأديرة للانفاق منها على الرهبان تتنافى أساسا مع أحد نذور الرهبنة الاساسية وهو التجرد أو مايسمى بالفقر الاختيارى . فضلا عن أنه لا يحقق رهبانيا الغاية الروحية من مبدأ العمل اليدوى على النحو الذى ذكرناه سابقا فالعمل جزء أساسى فى الحياة النسكية على النحو الذى أظهره الملاك للقديس أنطونيوس الكبير . واذا وجدت البطالة وزادت عليها الرفاهية فى الحياة الرهبانية نتجت عنها أضرار كثيرة الأمر الذى ظهر آثاره على الحياة الديرية على مرّ الأجيال .

وواقع الأمر أن الحاجة ماسة الى الرجوع بالرهبنة الى مبادئها الأولى الأصيلة حسب مارتب آباؤها لتصبح بركة لكل من يسلك هذا الطريق ، وأداة فعالة فى خدمة الكنيسة المسيحية فى بلادنا ، فتعود للظهور ثانية الصورة المشرقة التى كانت للرهبنة القبطية فى تاريخها المبكر — ليس فى مصر وحدها بل فى العالم كله .

فضل الرهبنة المسيحية على الكنيسة والمجتمع

كان للرهبنة آثارا عميقة وبعيدة المدى سواء على الكنيسة أو على المجتمع الانسانى هذا ما دعا المؤرخ الالمانى أدولف هرناك ... Adolf Harnak الى أن يجمل آثار الرهبنة العلمية فى عبارة واحدة يقول فيها " لقد وجد الفن والشعر والعلوم فى الرهبنة مبادئ حضارتنا اذ ن تعتبر فضلا من تاريخ الرهبنة " والآن نحاول أن نستعرض بعض فضل الرهبنة المسيحية على الكنيسة أولا ثم على المجتمع الانسانى فى مصر والغرب ..

(أولا) فى مصـــــر

على الرغم مما ألمّ بالرهبنة المسيحية فى مصر من ضعف وما نتج عنه من تدهور واضمحلال خاصة منذ الفتح العربى لمصر حوالى منتصف القرن السابع الميلادى ، نتيجة العوامـــل والضغوط المختلفة التى تعرضت لها ، لكن — ومع ذلك — فقد كان لها آثار خالدة لا يمكن انكارها فى تاريخها الطويل ، على مستوى الكنيسة والمجتمع ، نلخصها فيما يلى :

(١) فضل الرهبنة على الكنيسة : ونستطيع أن نلمس ذلك من التأمل فى ثلاثة جوانب :

(أ) الجانب الروحى : وهذ أول جانب حمل لواءه الآباء الرهبان ، اذ هو رسالتهم الأولى ، وهدفهم الأكبر فى اعتزالهم العالم . ولعل من أوضح وأبرز معالم هذا الجانب الروحى : حياة القدوة ، وحياة الصلاة ، ولسنا بحاجة الى ابراز ناحية القدوة الـــتى تعدت تأثيراتها حدود اقليم مصر الى خارجه ، فوفد رجال ونساء من انحاء كثيرة من أوربا وآسيا وأفريقيا — العالم القديم — ثم بعد أن تتلمذوا جيدا فى برارى مصر ، عادوا الـــى بلادهم وقد حملوا مشعل الروح وبناء مشعلا متوهجا أضاء ظلمات ، وأشاع الفرح ، وأنس بالخلاص للكثيرين . وليس أدل على ذلك من أن سيرة راهب واحد — هو انطونيوس الكبير التى دونها البابا اثناسيوس فى منفاه فى أوربا — أشعلت — كما يقول أحد المؤرخيـــن — الرغبة النسكية فى كل غربى أوربا ، وكانت سببا فى توبة كثيرين ومنهم أوغسطينوس ، الــذى بسبب توبته وحياته وأقواله تاب وما زال يتوب فى كل يوم كثيرين وكثيرون ... أما بالنسبـــة لما قدمه الرهبان للكنيسة بواسطة الصلاة ، فيقول أنهم كانوا وما يزالون يؤلفون الصفـــوف الخلفية لجيش الخلاص فى كنيسة المسيح ... ليست الرهبنة حزبا من الأنانية فالراهـــب وان كان يموت عن العالم بارادته لكنه يحيا حيا لله وللكنيسة ، يذكر احتياجاتها ويطلـــب لاجل نموها ونجاتها . لقد ترك الراهب العالم ليتفرغ لعمل الصلاة ، وحتى ما يكون وقوفه أمام الله بدالة ... وهل مثل الدالة فى الصلاة يمكن أن تأخذ من الله ما تريد وما تطلب ؟

لقد صلى الآباء الرهبان ، ومازالوا يصلون ، لأجل كنيسة المسيح ككل . ولاجل كل أخوتهم المؤمنين . اننا نقرأ أنه في كل الظروف الصعبة والاضطهادات التي تعرضت لها البلاد والكنائس ، كان الملوك المسيحيون والآباء البطاركة ـ كل من زاوية احتياجه ـ يهرعون الى الرهبان والنساك يطلبون منهم الصلاة ، أو بعبارة أدق يطلبون العون ، والعون يوافي من عند الرب ... اننا نعتقد يقينا أن بقاء المسيحية في مصر على ممر الأجيال ، رغم الضغوط العنيفة التي واجهتها فيما مضى ـ والتي قامت في بعض الاحيان كل تصور ـ انما يرجع الفضل الاكبر فيه الى الآباء الرهبان ، بفضل صلواتهم وقيادتهم اننا نؤمن بالصلاة ، وحاجة الكنيسة اليها حاجة الانسان للهواء والنبات للماء .. لقد انتصر شعب الله قديما ـ في حربه ضد عماليق ـ بشفاعة موسى النبي وصلواته اكثر من قيادة يشوع لجموع المقاتلين . فحينما كانت ترتخي ذراعا موسى كان الشعب ينهزم وحينما كانتا ترتفعان كان شعب الله ينتصر ، وهكذا احضروا حور وهارون لتظل ذراعا موسى مرفوعتين ـ رمز الصلاة ومثالها ـ وظلوا هكذا حتى تم لهم النصر على عماليق ، الذي للرب حرب معه من دور فدور ...

(ب) <u>الجانب الايماني والعقيدي</u> : جاهدت الكنيسة المسيحية منذ قيامها ضد البدع والهرطقات ، وحرمت من شركتها كل من يحيد عن الايمان السليم ، المسلم مرة واحدة للقديسين . ولم يكن آباء الكنيسة من باباوات وأساقفة هم وحدهم الذين ناضلوا في هذا الميدان ، بل شاركهم في ذلك كثير من الرهبان . وقصة القديس الانبا اغاثون التي أوردها كتاب بستان الرهبان توضح لنا حرص الآباء على سلامة الايمان ونفورهم من الهراطقة والبدع . " قيل عن القديس الكبير الانبا اغاثون ان أناسا مضوا اليه لما سمعوا بعظم افرازه وكثرة دعته . فأرادوا أن يجربوه. فقالوا له : أأنت هو أغاثون الذي نسمع عنك انك متعظم ؟ فقال نعم ، الأمر هو كذلك كما تقولون . فقالوا له : أأنت أغاثون المهذار المحتال ؟ قال لهم نعم أنا هو. قالوا له أأنت اغاثون الهرطوقي ؟ أجاب حاشا وكلا

أنى لست هرطوقيا . نسألوه قائلين : لماذا احتملت جميع ماقلناه لك ، ولم تحتمل هذه الكلمة ؟ فأجابهم قائلا : ان جميع ما تكلمتم به علىّ قد اعتبرته ربحا ومنفعة الا الهرطقة لانها تبعدنى عن الله ، وأنا لا أشاء أن أبتعد عنه . فلماسمعوا تعجبوا من احترازه ومضوا منتفعين " .

وليس أدل على ذلك من أن الانبا انطونيوس الكبير الذى لم يترك وحدته وينزل الى العالم سوى مرتين ، كانت احداهما سنة ٣٣٨ م لمساندة البابا اثناسيوس فى جهاده ضد البدعة الأريوسية . وكذلك كان الانبا شنودة رئيس المتوحدين ترك خلوته ورهبانه ورافق البابا كيرلس الكبير سنة ٤٣١ فى ذهابه الى مدينة أفسس بآسيا الصغرى حيث انعقد المجمع المسكونى الثالث .

وللمركز الرفيع الذى كان يتمتع به كثير من الرهبان فى نظر معاصريهم روحيا ولاهوتيا فقد ركز بعض الملوك المسيحيين الهراطقة لكسب ولاء لمعتقدهم الوخيم ، لعلمهم أن ذلك يسهل مهمتهم فى اقناع افراد الشعب . لكن نظر لصلابة الآباء الرهبان وتمسكهم بالايمان القويم ، فقد باءت جهودهم بالفشل . ونقدم لذلك مثلا ما حدث مع القديس الانبا صموئيل المعترف . . . أراد الملك البيزنطى هرقل (٦٣١ — ٦٤١) أن يجبر أقباط مصر — وهم من رعاياه فى ذلك الوقت — على قبول قرارات مجمع خلقيدونية وطومس لاون التى رفضتها الكنيسة القبطية . ولتحقيق ذلك استخدم صنوفا من الضغوط والاضطهاد منها أنه أقام بطريركا دخيلا اسمه قيروس بدل البابا بنيامين ٠٣٨ . وقد أنفذ قيروس هذا مندوبا عنه برتبة كبيرة ومعه مائتا جندى الى برية شيهيت لاجبار الرهبان على قبول طومس لاون . ذهبوا الى دير القديس مقاريوس وجمع الرهبان وقرأ طومس لاون وحاول أن يظفر بموافقة الرهبان عليه . لكنهم قاطعوه بالصمت التام . حنق عليهم مندوب قيروس وتضايق من عنادهم وهددهم بالعقاب . فانبرى له القديس الانبا صموئيل (المعترف) وأعلن رفضه لطومس لاون ولقرارات مجمع خلقيدونية . ثم أمسك بالطومس وبعد أن حرم كل ماحواه من

معتقدات فاسدة ومحها قرارات خلقيدونية وكل من يشارك بالايمان بها ، أمسك بالطومس ومزقه وألقاه خارج الكنيسة ... أما نتيجة هذه الجرأة والشهادة للحق فهى أن مندوب قيروس أمر بضربه ضربا مبرحا . فضربه الجند بوحشية وقلعوا احدى عينيه . فاكتفوا بذلك وأمر المندوب بطرده من شيهيت . فأخذه تلاميذه من بين أيديهم بين الحياة والموت . وحملوه الى خارج الدير واحتموا فى مغارة . وقد تشددت صحته بأعجوبة . ثم ترك برية شيهيت واتجه جنوبا الى جبل القلمون بأقليم الفيوم .

(جـ) الجانب التأليفى فى العلوم الدينية : وفضلا عما تقدم ، فقد كان بين الرهبان علماء فطاحل فى شتى العلوم الدينية ، ولاهوتيون مبرزون ساندوا الكنيسة بعلمهم ومؤلفاتهم فى شتى ميادين العلوم الدينية — تلك المؤلفات التى ذخرت بها مكتبات الأديرة ، والتى صارت مادة خصبة ودسمة لخدام الدين فى الكنيسة على مر العصور .

(٢) فضل الرهبنة على المجتمع :

ويمكن أن نلمس ذلك من زاويتين ، التربوية والاجتماعية :

(أ) الناحية التربوية : يتضح فضل الرهبنة على الناحية التربوية اذا تذكرنا أن آباء الرهبنة الكبار ومؤسسيها شددوا على أهمية التعليم فى حياة الراهب . فالانبا باخوميوس أب الشركة قضى على الامية فى أديرته بأن جعل القراءة والكتابة شرطا للالتحاق فى أديرته . واهتمام الأنبا شنودة رئيس المتوحدين بتعليم رهبانه وتثقيفهم واضح أيضا حتى غدوا من أكثر طبقات المصريين نصيبا فى التعليم خاصة فى الاقليم الذى كانوا يعيشون فيه . بل أنه لشدة إيمانه بالتعليم وسّع نطاق نشاطه التعليمى حتى شمل المنطقة المجاورة لديره .

وكان الأنبا انطونيوس الكبير يعلم رهبانه تارة على إنفراد وأخرى مجتمعين ، وهذا واضح مما خلّف من عظات نشرت . وحذا حذوة آباء الرهبنة الكبار من أمثال مقاريوس الكبير أب الاسقيط الذى له أيضا عظات نشرت ، والقديس باخوميوس أب الشركة الذى نظّم دروسا

عامة يتقدمها رؤساء الأديرة الباخومية بأنفسهم يومى الأربعاء والجمعة فى تفسير الكتب المقدسة والتعليم المسيحى • وكان يحضرها جميع الرهبان إجباريا ••• ولقد ذهب الأنبا شنودة الى ماهو أبعد من دائرة رهبانه حينما كان يفتح أبواب ديره لعامة الشعب فى أمسيات السبوت لحضور القداس الالهى صبيحة الاحد • وكان ينتهز فرصة تجمع آلاف من الناس داخل ديره • ويعظهم عظات هادفة لاستئصال الخرافات التى كانت شائعة والتقاليد الوثنية ويرشدهم الى كل ما هو حق •

وقد عكف الرهبان على حفظ اجزاء من الكتاب المقدس عن ظهر قلب • وكان باخوميوس يشترط فى طالب الرهبنة أن يحفظ عشرين مزمورا ورسالتين من العهد الجديد وقد ذكر بلاديوس فى كتابه بستان الرهبان ، الراهب مرقس الذى سرد الأناجيل امامه وكان عمره وقتذاك مائة سنة • وكتب عن راهب اسمه هارون كان يصحبه فى طوافه اثناء رحلته فى البرية ، وقال انه كان يحفظ خمسين مزمورا وسفر أشعياء وجزء من سفر أرميا وسفر الامثال وانجيل لوقا والرسالة الى العبرانيين • وقد سجل روفينوس الاكويلى — الذى زار مصر حوالى سنة ٣٧٢ وأمضى نحو سنتين فى الاسقيط — دهشته من مقدرة الرهبان على حفظ أجزاء كثيرة من العهد القديم •

هذا ، وبعد أن ضعفت مدرسة الاسكندرية اللاهوتية فى نهاية القرن السادس الميلادى نتيجة الضغوط والاضطهادات التى تعرضت لها الكنيسة ومؤسساتها ومنشآتها بصفة متوالية انتقلت القوى التربوية من الاسكندرية الى الصحراء — خاصة برية شيهيت (وادى النطرون) فصارت الأديرة مراكز تربوية عظيمة لعلوم الكنيسة • وقد اعتبرت الأديرة كمخازن لكنوز العلوم والمعرفة ، سواء منها الدينية او المدنية • وهى التى قادت الحركة التربوية فى مصر خلال العصور الوسطى • فالى جانب البحوث والدراسات التى تركزت داخل الأديرة ، فقد عهد الى بعض الرهبان فى انشاء مدارس أولية (كتاتيب) فى قرى وادى النيل لتعليم ابناء الاقباط •

هذا الى جانب نتاج الرهبان فى التأليف كما ذكرنا خاصة فى العلوم الدينية ، الذى شجع على نموه الجو الروحى فى الأديرة ، وما يغذيه من خبرات روحية نسكية . أضف الى كل ذلك نتاج الرهبان فى ميدان النساخة — نساخة المخطوطات — فى ذلك الوقت الذى لم تكن الطباعة قد عرفت فيه ، وكان لهذا العمل أثره فى نشر التراث الثقافى والدينى .

(ب) الناحية الاجتماعية : كان للرهبنة آثارا اجتماعية بعيدة المدى فى نفوس الناس . تأثر بها المجتمع القبطى ، فسادته موجة من الزهد وأخذ يقتدى بالرهبان وينقل عنهم كثيرا من ممارساتهم وأصوامهم . ولما ذاعت فضائل الرهبان ، آثر الشعب أن يختار قادته الروحيين . وكانوا يحملونهم قسرا الى المدن لتولى مناصب الاسقفية والبطريركية . ومنذ ذلك الحين كثرت الانطباعات الرهبانية النسكية فى حياة المجتمع القبطى ان النماذج الحية للفضائل والتقوى وانكار الذات التى تألقت فى حياة أولئك الرهبان المصريين كانت أعظم دليل على أن الفضيلة ووصايا الدين أمور واقعية يمكن الوصول اليها وليست مجرد مثل عليا أو مبادئ نظرية يتخيلها الدين ، الامر الذى ينصر قوى الخير فى المجتمع على قوى الشر ، فلا يبتلع اليأس الكثيرين فى موجات الانحلال والمادية والالحاد بل تشجع تلك النماذج الحية على استمرار الجهاد فى سبيل الفضيلة تشبها بهؤلاء المتعبدين ولعل هذا مما حفظ للمجتمع المصرى طابعه الدينى على مر العصور .

وثمة ظاهرة اجتماعية أخرى . فالمرضى والرازحون تحت آلام الحياة وأعبائها يلتمسون التعزية والمشاركة والطمأنينة من أناس عمرت قلوبهم بالايمان ، وغمر السلام قلوب كثيرين بفضل صلواتهم وتعزياتهم وارشاداتهم وقدوتهم ، تلك التى كان لها أكبر الاثر فى تجديد الرجاء لمن يقصدونهم . لقد كانت الأديرة أشبه بموانى السلام فى أوقات الأوبئة والحروب والمجاعات ، اذ يجد اللاجئون اليها الأمن والدواء والطعام . وعن ذلك قال هرناك المؤرخ الألمانى " ان النساك المصريين كانوا يعتبرون فى جميع العصور — حتى فى نظر الغرب — آباء ونماذج للحياة المسيحية الحقيقية " .

(ثانيا) في الغــــــــرب

والرهبنة في أوربا التي هي مدينة لرهبنة مصر تمكنت من معالجة أحوال المجتمع الدينية والأدبية والاجتماعية والاقتصادية ٠

في مجتمع أوربا العصور الوسطى كانت المدارس الملحقة بالأديرة من أهم مصادر التعليم وصارت فيما بعد نواة للجامعات بالمفهوم الحديث ، ومن آثارها جامعتي اكسفورد وكامبردج بانجلترا ٠ كان الدير كالواحة في الصحراء أو كالمنار المضيء وسط ظلمات الجهل يجذب اليه جميع الطبقات الاجتماعية من الفقراء والعبيد والمظلومين والمنكوبين ٠ وقد ألحقت بكل دير دار لاضافة الغرباء ، ودار أخرى أشبه بالمستشفيات الحديثة لعلاج المرضـــى وبعض الملاجئ ٠

كما كانت الأديرة فضلا عن ذلك مجمعا للفنون والعلوم والحرف والصناعات ، ومركــــزا لاعمال التبشير بالمسيحية في البلاد الوثنية ٠ فكريستوف كولومبوس مكتشف امريكا صحب معه لفيفا من الرهبان الدومنيكان ، ترك بعضهم ليبشروا الهنود الحمر ٠ وكذلك فعل فرديناند كرتز مكتشف بلاد المكسيك ، وبيزارو مكتشف بلاد بيرو والبرازيل ، وبطرس فالديفيـــا مكتشف شيلي في أمريكا الجنوبية ٠ فلقد صحب هؤلاء معهم عددا كبيرا من الرهبـــان الدومنيكان والفرنسيسكان والبندكتيين واليسوعيين ٠ لقد بلغ من تأثير الرهبنة في مدينــة العصور الوسطى أنها أصبحت عاملا قويا على نشر المسيحية بين الشعوب المتبربرة علــى يــد الرهبان ٠

ورهبان العصور الوسطى هم الذين حفظوا لنا تراث الاقدمين ، اذ كانوا يقومون بنسخ كتاباتهم وترجمتها وتفسيرها ٠ وقد اشتهر منهم علماء جهابذة من أمثال الراهب الانجليـزي بيدا (٦٧٥ ــ ٧٣٥) الذي كان أكبر مؤرخي عصره ، والراهب الفرنسيسكاني روجر بيكـون (١٢١٤ ــ ١٢٩٢) أكبر علماء الطبيعة والفلك في العصور الوسطى ، وواضع أسس العلم التجريبي الحديث ٠ كما اشتهر كثير من الرهبان في نواحي الفنون المختلفة الـــتي خلفت لنا تراثا جميـــلا ٠

تعريف بالرهبنة في الغـــرب

وقبل أن ننتهي من موضوع الرهبنة نرى من المفيد أن نقدم في عجالة شيئا عن الرهبنة في الغرب حتى بذلك تكتمل لدينا صورتها في العالم أجمع القديم والمعاصر ٠

سبق أن أشرنا الى الراهب بندكت (٤٨٠ ــ ٥٤٧ م) الذي يعتبر بلا شك المؤسس الحقيقي للرهبنة في غربي أوربا ويحسن أن نعرف شيئا عنه :

ولد سنة ٤٨٠ م في مدينة نرتشيا بايطاليا من أسرة عريقة ٠ أظهر منذ حداثتـــه ميلا للفضيلة ٠ تثقف بعلوم عصره في مدارس روما ، وبعد أن أمضى فيها سبع سنوات عاد الى مسقط رأسه لأنه خشى على حياته الروحية من تيار العالم الجارف ٠ أظهر ميلا للزهد في الدنيا ، فاعتزل الحياة العامة الى كهف سوبياكو .. Subiaco الذي يبعد عن روما نحو ٤٠ ميلا ، كان يرسل اليه خلالها ناسك في تلك الجهة ما يحتاجه من الخبز ٠٠ وما لبث أن اشتهر أمره وقصده كثيرون تتلمذوا على يديه ٠٠٠ ثم اعتزل الى مونت كاسينو قرب نابلي سنة ٥٢٠ حيث أسس ديرا ، ظل هو الدير الرئيسي للرهبنة البندكتية في العالــم لقرون طويلة ٠ هناك وضع قانونه الجديد الذي استمده من قوانين الشركة لباخوميـــوس وأصبح قانون الحياة الديرية في أوربا كلها فيما بعد ٠ وقد ميّز بندكت في قوانينه بيـــن الديريين والرهبان المتوحدين ٠ أسس أديرة أخرى للرجال ، كما أنشأ أديرة للعذارى ترأست أحدها أخته سكولستكا .. Scholastica

هذا هو أساس الرهبنة الغربية ٠٠٠ لكن ينبغي أن نشير الى ظهور رهبنات كثيرة في أوربا في العصور الوسطى ، وكلها ظهرت كنتيجة للظروف التي كان يمر بها المجتمع الاوربي في العصر الوسيط ٠ وكأمثلة لذلك نقول أنه بسبب الحملات الصليبية التي كان ينقذهـــا الغرب الى الشرق لاسترداد الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين ، ظهرت رهبنات عرفت باسم " الرهبنات المتجندة " ، وقد شاركت في الغزوات الصليبية ، " ورهبنة الثالوثيين "

وكانت غايتها انقاذ أسرى تلك الحروب ... وبسبب ظلم الجهل والفساد الذى تفشى فى المجتمع الأوربى فى تلك العصور ، وبسبب الضعف الذى أصاب المجتمع الكنسى فى ذلك الجزء من العالم نشأت " رهبنة الأخوة الوعاظ" وهى المعروفة باسم رهبنة الدومنيكان - نسبة الى مؤسسها الراهب دومنيكوس (١١٧٠ - ١٢٢١) ورهبنة الأخوة الصغار التى أسسها الراهب فرنسيس الأسيسى (١١٨٢ - ١٢٢٦) وهى المعروفة باسم رهبنة الفرنسيسكان وكانت رسالتهم وعظ الناس وحضهم على التوبة .. ثم الرهبنة اليسوعية التى أسسها الراهب أغناطيوس دى لويولا سنة ١٥٣٤ ، والتى قامت كرد فعل لحركة الاصلاح الدينى التى تزعمها لوثر . وكان هدف هذه الرهبنة مقاومة أعداء الكنيسة الكاثوليكية وسميت رهبنة اليسوعيين اشارة الى أن أعضاءها جنود جدد روحيون أنصار لدين يسوع المسيح

والآن بعد أن عرضنا لفكرة الرهبنة فى الغرب بصفة عامة نقف لنعرض شيئا عن أقسام رهبناته التى يمكن تقسيمها الى أربعة أنواع ظهرت فى عصور مختلفة .

(١) وهى المعروفون باسم ... Moines, Monk أى الرهبان بالمعنى الأصيل للكلمة وهؤلاء خصصوا حياتهم للعبادة والتأمل ، ويتبعون قوانين بندكت . ويدخل ضمن هذا النوع الرهبان البندكتيون Benedictins والسيسترسيان .. Cisterciens" والكارتوزيان Carbusians, Chartreux والكامالدول .. .. Camaldules

(٢) وهم المعروفون باسم Chanaines régulier أى الكهنة الماشون حسب القانون الرهبانى . وهؤلاء يعيشون حياة الشركة ويخدمون الشعب باقامة القداسات وسائر الخدمات الطقسية . فرسالتهم الأساسية فى خدمات الكنيسة الطقسية . وأفضل مثال لهذا النوع الرهبان البريمونتريه .. Prèmonsrés وهؤلاء يسيرون حسب قوانين القديس أوغسطينوس التى جمعت بين خدمة الكهنوت والحياة الديرية . وقد ظهر هذا النوع فى القرن الثانى عشر .

(٣) وقد اشتهر باسم الرهبان المتسولين Relieiux Mendiants وهم نوع من المكرسين يعيشون حياة الشركة الديرية وقد أخذوا عن قوانين بندكت وجوب الاشتراك في جميع طقوس الكنيسة والتسبحة ، وكذا بعض الممارسات الرهبانية كالصوم والصمت والاعتكاف ... لكن عليهم ان يخدموا الكنيسة ليس فقط باقامة الطقوس الكنسية كالنوع الثاني الذي أشرنا اليه بل أيضا بالوعظ والكرازة وسائر الخدمات الرعوية والتبشيرية والدراسات اللاهوتية العالية والتأليف والدفاع عن الايمان ... ويدخل في هذا النوع الرهبان الدومنيكان والفرنسيسكان والآباء الكارم ... Carmes والاوغسطينيون Ougustins

(٤) الجماعات الرهبانية الحديثة : وأولها جماعة الآباء اليسوعيين . وهذه الجماعات قائمة أساسا لأجل الخدمة والكرازة والتبشير وقد احتفظت ببعض المبادئ الرهبانية كنذور الطاعة والعفة والفقر الاختيارى . ولكنها لا تلتزم بالممارسات الرهبانية كالأصوام والصمت والاعتكاف ، وبالاشتراك الجماعي في طقوس الكنيسة .

والآن ، بعد هذه النظرة العامة للرهبنة الغربية ـ نستعرض بعض الرهبنات البارزة التي تمثل الاتجاهات الرئيسية للرهبنات الغربية .

رهبنة البندكتيين (O.S.B - ordre de St. Benoit)

وأسسها الراهب بندكت على نحو ماذكرناه . وقد ترك لرهبانه القوانين المعروفة باسمه . وقد سار ، ومازال يسير على هذه القوانية الرهبان البندكتيون على اختلاف شعبهم ، وجميع الرهبان الغربيين الذين يعتبرون ذواتهم رهبانا بالمعنى الاصيل للكلمة Monks Moines أما عن قوانين بندكت الرهبانية فتتلخص فيما يلي :

+ ينضم الراهب الى دير معين ويبقى فيه طوال حياته ولا يجوز أن تنتقل منه الى دير آخر .

+ يتعهد الراهب المستجد أن يسلك مسلك الرهبان وأن يكون مطيعا لرئيس الديـــــر وهذا التعهد يشتمل ضمنا على كل ما يتعلق بالحياة الرهبانية •

+ يعيش الرهبان معا حياة الشركة الكاملة • يأكلون معا ويدرسون معا ويعملون معـــا بل ينامون في حجرة مشتركة وليس في قلالى منفردة •

+ لايرقى الرهبان الى الدرجات الكهنوتية • باستثناء أفراد قلائل يرسمون كهنـــــة وشمامسة لخدمة الدير •

+ يقضى الراهب وقته في الصلاة والقراءات الروحية في الكتب المقدسة وأقوال الآبــــاء والكتابات النسكية وبعض الأعمال اليدوية • وأهم طقس في حياة الراهب هى اشتراكـه في الصلاة الطقسية والتسبحة المقدسة •••

+ ونصت هذه القوانية على عدد من الممارسات الرهبانية كالصوم من شهر سبتمبر الى عيد القيامة والامتناع التام عن أكل اللحم طول السنة • وممارسة الصمت والاعتكاف داخل الدير •

وبدراسة هذه القوانية يتضح لنا ان بندكت لم يبتكر نظاما رهبانيا جديدا بل اعتمد على الانظمة الرهبانية السابقة خاصة قوانين الأنبا باخوم وباسيليوس الكبير • وهو يستشهـــد بكثرة باختبارات الرهبان المصريين وأقوالهم كما أوردها يوحنا كاسيان • لكن — ومـــع ذلك — يرجع اليه الفضل في تكييف الأنظمة الرهبانية الشرقية لتلائم الحياة في الغرب • وقد نالت قوانينه شهرة كبيرة في الغرب وصارت هى الأساس الذى قامت عليه معظم الرهبنات الغربية خاصة ما ذكرناه تحت النوع الاول •

رهبنة الكارتوزيــــــان :

وهى تجمع بين نظامى التوحد والشركة الديرية • وأديرتهم مكونة من كنيسة تتوســـط قلالى الرهبان • وهذه القلالى منفصلة بعضها عن بعض • وكل قلاية بها ثلاثة حجـــرات وحديقة صغيرة ولايخرج منها الراهب الا للذهاب للكنيسة • وكل راهب ينظم صلواتـــه

وقراءاته وحياته الخاصة على انفراد داخل قلايته ، ولا يتصل بباقى رهبان الدير، فـان احتاج الى طعام أو كتب معينة طلب ذلك كتابة فيحضرونها على شباك قلايته .. وهـؤلاء الرهبان يتبعون نظاما صارما فى الصوم على مدار السنة .

رهبنـة الفرنسيسكـان .. .. Franciscains

(أو رهبنة الاخوة الصغار .. .. .. (O.F.m - ordre des frères mineurs

وهى أول رهبنة ـمع الدومنيكان ـ أدخلت خدمة الكرازة فى أنظمتها . واهتمت بالتبشير فى بلاد غير مسيحية . فمؤسسها الراهب فرنسيس بشر فى بعض البلاد الاسلامية الشرقيـة كما أرسل بعضا من رفقائه الى الاندلس حيث استشهدوا فى سبيل الايمان. وبعد وفاتـه وصل رهبانه الى بلاد الفرس والصين والهند وبشروا فيها بالمسيحية .

وتميزت هذه الرهبنة فى عصورها الأولى بالتمسك الشديد بالفقر الاختيارى . ولايحق للرهبان الفرنسيسكان أن يمتلكوا شيئا البتة لا كجماعة ولا كأفراد . فكانت كل أملاكهـم توضع باسم البابا الى أن عين وكلاء عنه فى ادارة أملاك الفرنسيسكان .

رهبنة الدومنيكان .. Dominicains

أو رهبنة الاخوة الكارزين ... (O.P - ordre des frères prêcheurs

وجميع الرهبان الدومنيكان فى رهبنتهم يجمعون بين الممارسات الرهبانية كالصوم والصمت والاعتكاف واقامة التسبحة وبين خدمة الكرازة . وقد برعوا فى العلوم اللاهوتية اكثر مـن غيرهم . ومنهم العلامة توما الاكوينى الذى يعتبر اكبر علماء اللاهوت فى الكنيسة الغربية وكثيرون منهم اخذوا على عاتقهم الدفاع عن الايمان الكاثوليكى ضد الخارجين عليـــه وكذلك دراسة الديانات الاخرى والرد على المبادىء الالحادية والهدامة . وهــم يوزعون وقتهم بين الصلاة والدراسة والتأليف وتحرير المجلات الدينية والوعظ وخدمـة الشبـــاب .

رهبنة اليسوعيين (S.J - Societatis Jesus)

وهى أول جماعة رهبانية أبطلت الالتزام بالعبادة الجماعية الطقسية وأبدلتها بممارسات فردية مثل ساعة التأمل اليومى وفحص الضمير مرتين فى اليوم . وكذلك أبطلت الالتزام بالممارسات الرهبانية كالصوم والصمت والاعتكاف ، وأعطت أهمية اكبر لمبدأ الطاعة . ويهتم اليسوعيون بخدمات مختلفة كالتبشير والتدريس فى المدارس والكليات اللاهوتية والارشاد الروحى للأفراد والجماعات والرعاية الروحية للمستشفيات والسجون والوعظ والتأليف . وهم يمثلون آخر ما وصل اليه تطور الرهبنة فى الغرب .

رهبنة أخوة يسوع الصغار

وظهرت هذه الجماعة فى عصرنا الحالى ، وهؤلاء يعيشون فى بيوت وسط المدن ويعمل بعضهم فى المصانع حتى يتحقق لهم الاتصال بمشاكل الناس والاحساس بها .